

Twitter: @MahmoodTayeb
5.5.2013



60

دقيقة

هزت العالم

قصة المجزرة التي تعرض لها أسطول الحرية



د. هاني سليمان

60 دقيقة هزت العالم

قصة المجزرة التي تعرّض لها أسطول الحرية

تأليف
د. هاني سليمان



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

مقدّمة

لماذا تُقدم اسرائيل على التعرض «لأسطول الحرية» المتجهة إلى غزة في المياه الدولية؟

هل تخاف من مئات الناشطين الأجانب، الذين ركبوا سفنهم لإعلان التضامن مع شعب محاصر، ام أنها تخاف ممّن هم وراء هؤلاء، من مؤسسات المجتمع المدني في دول ناصرته حكوماتها اسرائيل على الدوام؟

أما كان أفضل لها أن تفوّت على حركة حماس «الارهابية» نصراً كبيراً، كما تقول وسائل إعلامها.

لماذا تنتحب جريدة «يديعوت أحرونوت» الصهيونية قائلة: لقد حققت حماسُ نصراً كبيراً دون ان تطلق رصاصة واحدة، وتردّف وهي تمسح دموعها: «ان القافلة لم تصل إلى غزة، لكن غزة وصلت الى قلوب الملايين».

لقد أجمعت الصحف الاسرائيلية على ما وصف العملية الإسرائيلية بـ «الخرقاء» قائلة: «إن إسرائيل قد أهينت»، وأن «هذا الردع قد جعل من إسرائيل دولة قراصنة». لتنتهي هذه الصحف إلى النتيجة التالية: «فشل استخباري، تبعه فشل عملياتي، قاد إلى فشل سياسي». هي لا تعتذر للضحايا عن فعلتها. وبالرغم من ذلك / بل وبسببه / فإني، وأنا الجريح والضحية، «أفهم» موقفها جيداً. وأرى في اعتذارها - إذا حصل - تعهداً منها بعدم تكرار القتل في المرة القادمة. كيف لها أن

تُنَاقَصُ ما شَبَّت عليه منذ نشوئها، وهي تشيب هذه الأيام؟
ومع ذلك، يتجمّع اليهود أمام السفارة التركية في «إسرائيل» بعد
المجزرة، ليحتفلوا برصاصات قاتلة في قلوب محبي الحرية.
هل القتل ناشئ عن شعور بالقوة، أم عن شعور بالضعف والخوف
إزاء حملة بحرية عالمية سلمية؟

كيف ستصرف تلك المارقة مع أسطول من ثلاثين سفينة، سيتجمّع
من موانئ جميع القارات في الربيع المقبل، ليصل إلى موقع المجزرة
في البحر، فيحتفل بالذكرى السنوية الأولى لاستشهاد تسعة، وجرح
اربعين من النشطاء الأتراك والأمميين، فيطلق الأسهم النارية غير القاتلة
للبشر، ويلقي الخطب «القاتلة» للعنصرية، ومن ثم يكمل طريقه إلى
حيث ينتهي الطريق في غزّة.

ان أوضح تفسير لخلفيات ما قامت وتقوم به إسرائيل هو ما جاء
على لسان قادة ذلك الكيان. يقول تانياهو: «لقد ذهلت إسرائيل من
ذهول العالم». ولقد هب «المجلس المصغر» للحكومة، «ليستغرب الهبة
العالمية» ضد إسرائيل، ويتخذ القرارات المناسبة.

منذ سنة تقريباً، وضع مجلس حقوق الانسان في الأمم المتحدة
تقرير «غولدستون» عن العدوان على غزّة، فوصف أعمال إسرائيل بأنها
جرائم إبادة، وجرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية.

وقبل عدة أشهر وضع مجلس حقوق الانسان في الأمم المتحدة
تقريراً عن جريمة التعرض «لأسطول الحرية» في البحر، فأدانها بأقسى
العبارات، واعتبر أن هذه الجريمة تستدعي المحاكمة أمام المحاكم
الدولية.

هي جريمة هزت ضمير العالم من طنجة على الأطلسي، حتى جاکرتا في المحيط الهادئ، مروراً بأوروبا وأمیرکا، فتلّوت إسرائيل على نار الشجب والإدانة، في الصفحات الأولى لكبريات الصحف، في الأترنت والفضائيات، في الشوارع كما في الأروقة، في المحافل السياسية كما الدبلوماسية، لدرجة أن أميرکا وللمرة الأولى في تاريخ السياسة الخارجية الأميركية، وبسبب من الحرج، تمتنع للمرة الأولى عن إعلان «الفيديو» ضد إدانة إسرائيل في مجلس الأمن.

جراء هذه الجريمة، خاف العالم على نفسه من حالة تسيطر فيها عقلية القتل البارد، وتنحصر فيها قيم المحاسبة، فتحوّل هذا الخوف إلى صحوة عالمية، تجلّت بحملات كسر الحصار عن غزّة بعد المجزرة، ولقد جاءت هذه الحملات رداً مباشراً على سلوك منحرف وعقل صلب، فكانت الحملة الأسيوية من الهند، والحملة الإفريقية، والحملة الأوروبية، ومن شمال وجنوب أميرکا. إضافة إلى ما شهدته وتشهده الساحات والشوارع العربية.

في الربيع القادم من هذه السنة سيتجمّع في البحر الأبيض المتوسط عدد كبير من البشر حاملاً رسالة تضامن مع أهل غزّة، وناقلاً منهم رسالة جوايية، عنوانها الشكر ومضمونها العهد على الوفاء. هم أحرار أوروبا والعالم ارتادوا البحر في جمعية «غزّة حرة»، وعبروا برّ أوروبا وصولاً إلى فلسطين عبر جمعية «تحيا فلسطين عربية».

Viva palestina arabia

هي ثقافة الشعوب، وكان للإسلام والعرب دور في اغنائها يوماً من الأيام، وجاء يومهم للتنعم بنعمتها والاستفادة من قيمها. ثقافة الشعوب

هذه، تكونت عبر مؤسسات لحقوق الانسان، فكانت مبادرات كسر الحصار عن غزة، فسقط شهداءُ أجنبٌ على غير أرضهم، وتحول اسم «أسطول الحرية» إلى مرادفٍ لمظلومية شهدها العالم بأم العين.

* * *

الحمد لله على السلامة... هل ستكرر المحاولة الثالثة؟

أسئلة متكررة استقبلتني بعد العودة من غزة.

الجواب على هذه الأسئلة كان مريباً، لا بل محرّجاً... كانت قناعتي الداخلية قد استقرت على عدم المشاركة الشخصية في الاسطول الثلاثيني المزمع انطلاقه مطلع الربيع المقبل، لأن هذه المشاركة ستفسّر ربما، باحتكاري للدور والشهرة وحب الأضواء، وهي صفات لا تستقيم مع مغامرتين حملتا من المخاطرة ما يجنب «العاقل» مجرد التفكير بما بعدهما لو بقي حياً. أما الاعلان عن هذه القناعة فأخشى أن يفسر بالتوبة والتراجع وتعلّم الدرس القاسي من «إسرائيل».

حقيقة الأمر، وكما هو معروف عني، فإنني لم أندم ولم أتّب. ولهذا، فإنني أشجع الآخرين على اعلان رغبتهم وتسجيل أسمائهم وتحضير أنفسهم للمشاركة في الرحلة القادمة.

عشرات بل مئات من الجمعيات الأهلية العالمية عقدت العزم على اطلاق هذا الأسطول.

مئات بل آلاف من الناس سجلوا أسماءهم لهذا اليوم الموعود.

آلاف... وملايين من الدولارات والعملات الأخرى جمعت تبرعاً

لهذا المشروع.

بضع عشرات من السفن تم شراؤها أو كراؤها تحضيراً لساعة الانطلاق.

من يوم أن دخلت آلام الفلسطينيين إلى بيوت الناس عبر الفضائيات، أصبحت فلسطين قضية الإنسان في دول تحتضن أحراراً وأصحاب نفوس تأبى الظلم.

يومها «انتزع» أحرار العالم قضية فلسطين من أصحابها، فاندفعت سفنهم باتجاه غزة، وشهدت شوارعهم أكبر وأضخم تظاهرات شهدها مطلع هذا القرن، وشهدت محاكم العواصم الأوروبية ملاحقات قضائية لقادة الكيان الصهيوني، فتجنبوا النزول في مطاراتها، خوفاً من الاعتقال. منذ ذلك اليوم أدركت أن العالم بدأ يصحو.

ومن يوم أن قال لي المحقق الصهيوني في الرحلة الأولى إلى غزة: «أنتم تحاصروننا بالرأي العام العالمي الذي يتهمنا بالعنصرية»، تذكرت المثل القائل: «لو خليت فنيث».

لقد أدركت باللموس، من الصديق كما من العدو، أن قضية فلسطين قد أضحت قضية عالمية، فدخلت دائرة الضوء العالمي، وفشلت محاولات التعتيم عليها في الغرف السوداء، الدولية منها والعربية.

ولكي لا يكون هذا الانطباع سباحة سهلة في بحر التفاؤل... لا يفوتني القول إن الصهيونية العالمية قد سبقتنا بأشواط إلى جعل «قضية إسرائيل» قضية عالمية بامتياز. فالدوائر الاستعمارية، تصرح ليل نهار، «أن تهديد أمن إسرائيل هو تهديد لمصالح الغرب»، فجعلت منها

«الطفل المدلل» ذي القبضة الحديدية، خدمة لمشاريعها الاستعمارية ومصالحها الاقتصادية واطماعها البعيدة المدى، الهادفة للسيطرة على قلب أمتنا، على سمعها وبصرها، على شرايينها وباطن أرضها، على سمائها وبحرها، على مواصلاتها واتصالاتها.

مقابل هذا التبني الغربي الصريح لطفل غريب زُرع في أحشاء أمتنا، تحركت حفنة طيبة من يهود أوروبا «فامتطت» السفينة باتجاه غزّة تضامناً مع أهلها في الصيف الماضي، فكان مصيرها الاعتقال في المياه الدولية.

هل هذا التحرك هو نوع من المغامرة أو حبّ الإستطلاع، أم هو مبادرة فرضتها ظروف القهر على شعب محاصر، فجاء تعبيراً عن امتعاض هؤلاء من سلوك أبناء جلدتهم، أو تنصلاً من عمل يشين أبناء جلدتهم، أو إعلاناً أن اليهودية ليست تماماً كالصهيونية؟ هل هي التظاهرة الأولى ليهود غربيين عبّروا عن «لا صهيونتهم» على امتداد العقود السابقة. وهل هذه المبادرة هي طفل يتيم لن يرزق بشقيق؟ أو هي فعل عقيم لن يرزق بخلف... أو أن المرحلة المقبلة ستكون حبلية بتعبير الأحرار عن رفض ما يؤذي الانسان ويهدد حياته في أرضه؟

لماذا يبادر تسعة وثلاثون من رؤساء وقادة أوروبا السابقين، إلى التوقيع على عريضة واحدة أواخر سنة 2010، تطالب «إسرائيل» بالاعتراف بدولة فلسطين وقد تحرروا من الضغوط الصهيونية بعد فترة ولايتهم. عاصرت فلسطين ثلاثة قرون من الزمن، ولم يستطع المشروع

الاستعماري الصهيوني إعلان السيطرة عليها حتى الآن.
لا أنسى ما قاله لي المحقق الصهيوني في الرحلة الولي: «هذا
صراع لا ينتهي بيننا إلا بحرب عالمية ثالثة».

واليوم تتجمع في الأفق ملامح صحوة عالمية شعبية، بدأت تدرك
أن الدول الاستعمارية هي أيضاً «مستعمرة» من اللوبي الصهيوني.
لقد بات معروفاً أن عدداً من حكومات أوروبا والعالم، تمنع على
مواطنيها تحت طائلة السجن، أيّ تشكيك أو حديث عن حجم محرقة
اليهود، وأنه لا يحق لأحد في الدنيا أن يتحدث عن هذه المحرقة إلا
 لليهود دون غيرهم، وأن حديثاً هامساً وغامزاً بين ناس هذه الدول يدور
مستكراً هذا التحريم «Taboo».

وللعلم... فإن اليهود قد ساهموا في تعديل شروط القانون الدولي،
من أجل تفادي تفتيش السفن في أعالي البحار لتجنب السفن التي كانت
تقل المهاجرين اليهود من التفتيش، والذين فرّوا من النظام النازي. هذا
القانون نفسه الذي استخدموه بالأمس، طالتهم مفاعيلُهُ اليوم. جعلوه
سفينة نجاتهم، فإذا بها تغرقهم، والآتي من الأيام كفيل بالخبر.

* * *

سفينة «الأخوة اللبنانية» التي انطلقت في شباط 2009 هي نقطة
البداية العربية في مسيرة عالمية حديثة، تتطلع لإحقاق الحق في
فلسطين. احتجزت السفينة في ميناء أشدود الصهيوني، ظناً من العدو
أنه بحجزه إياها، إنما يلقن درساً لأصحاب السفن الأخرى، فيخيفهم
ويمتنعون عن تأجيرها للناشطين الجدد، فكان لرئيس لجنة «المبادرة
الوطنية لكسر الحصار عن غزة» معن بشور أن أعلن أنه «مقابل السفينة

الأسيرة، فإن أسطولاً من السفن سيتوجه إلى غزة».

لم يكن بالحسبان أن هذه الدعوة ستلقى الصدى الواسع والاستجابة غير المسبوقة لهذا النوع من التضامن مع شعب غزة. ربما لأن الأشكال السابقة للتعبير قد أدت قسطاً ملحوظاً من النجاح، لكن تلك النشاطات على أهميتها كانت مألوفة ومسبوقة.

أشهد، أنه طوال فترة التحضير «لأسطول الحرية»، بدءاً من اجتماعات عقدناها في اسطنبول على هامش مؤتمر نصره غزة، وبعد أسبوعين على تجربة سفينة الأخوة اللبنانية مع أخوة أترك وجزائريين وأردنيين وكويتيين وبحرينيين، أشهد أنني لم أشهد يوماً إلا وكان فيه اتصال بالخارج، أو كان فيه اتصال من الخارج، تنسيقاً وتحضيراً للرحلة. ومع دخولي العقد السابع من العمر، أشهد أنني قد بدأت أسمع بدول ومدن، لم أكن لأسمع بها في حياتي، تشهد أنشطة تحضيرية لانطلاق الأسطول.

وأشهد أن قادة العدو، لم يكونوا بأسوأ حال نفسية مما كانوا عليه في الحروب الكبرى، تجلّى ذلك باعتدائهم الوحشي على الأسطول. وأشهد أن قتل وجرح الناشطين، بقدر ما كان غضباً من الأترك، فقد هدف إلى وضع حد للناشطين الغربيين، في محاولاتهم الانتصار لغزة وفلسطين.

* * *

مع عودتي من سجن ميناء أشدود إلى الوطن عبر الناقورة في المرة الأولى، كانت وفود من هيئات أهلية وشعبية، ومن ممثلين عن المقاومة في لبنان، تعلن تبنيها لهذه الدعوة التي سرعان ما انتشرت في دنيا العروبة والإسلام وبلاد الإغتراب والعالم الخارجي كالنار في الهشيم. لقد كانت هذه السفينة ﴿...كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. (سورة البقرة). وما زاد من حرارة التبني لهذه الدعوة خارجياً، هو تلقف أهل غزّة لها في الداخل، ومبادراتهم المتعددة لاستقبال الأسطول على غير صعيد، فتشكلت لجان الاستقبال، وزيارات الأضرحة وعيادة الجرحى ومعاينة مخلفات الحرب، وكان توسيع ميناء غزّة وتعميقه، الشغل الشاغل للمسؤولين فيه، لتمكينه من استقبال سفن الشحن الكبرى التي كانت في عداد الأسطول، والتي كانت محمّلة بأطنان من المساعدات الغذائية والطبية وكميات من الحديد والإسمنت ومولدات الكهرباء لبعض مستشفيات غزّة.

على أهمية ما حملته هذه السفن من مساعدات عينية، فإن أعظم ما حملته وأفعّله، هو تلك العواطف الجياشة، وذلك النبل المجموع من أقاصي الأرض، والمجبول بحرارة اللقاء بفلسطين وأهلها. كانت الفضائيات العاملة في غزّة تحمل إليها ومنها، أصدق المشاعر وأنبل العواطف، فسهر الأهالي الليالي الطوال على الشاطئ

ينتظرون وصول «أسطول الحرية»، وانطلقت الزوارق والمراكب مزدانة بأعلام فلسطين، «فافترشت» أرض البحر، و«نصبت خيامها» فيه، تلهفياً للقاء الأحبة، على ما يقول الشاعر الجاهلي:

وأكثر ما يكون الشوق وصلأً إذا دنت الخيام من الخيام.
حتى صيادي الأسماك، فقد وفرّوا ما جتته شباكهم قبل الوصول المفترض للأسطول، لتقديمه وليمة للضيوف الأعداء.

هو «العالم الحر»، فعلاً لا قولاً، ينتصر للحق أينما وجد.
وهي العروبة الحضارية، التي ترى في احرار العالم أخواناً...
هي رحلة التناصر والتعاقد في «حملة صليبية» مباركة هذه المرة، لا إستعمارية ولا إستيطانية، بل هي فعلٌ توضيح بين المشاركين الغربيين وأندادهم العرب، لفهم مُلتبس كان قائماً على معادلة: «أن كل الغرب إستعمار»، و«أن كل العرب طغيان وتخلف وعبودية».

* * *

عدت إلى بيروت بعد إصابتي على سفينة «مافي مرمرة»،
موزعاً بين الألم في أعصاب الرجل اليمنى، وبين محاولة كتابة هذه
القصة، ايفاءً لعهد قطعته على نفسي بتوثيق هذه الرحلة. وكنت، ما
أن ينام الألم قليلاً حتى أقوم لأوراقى لأحبر الصفحات بالانطباعات
والمشاعر. لكن أنى لي ذلك؟ فما أن يلامس القلم الورقة، حتى
يستفيق العصب، وكأن بين الورقة والعصب حلفاً غير مقدس ضدي.
كنت مصراً على «زيارة» الورقة، لكن القلم كان جاسوساً
عند العصب. وعلى طريقة السارق في تنويم كلب الحراسة، كانت
المسكنات وسيلتي إلى سرقة بضعة أسطر... لكن كتابة مع الألم كانت
أشبه بقراءة صحيفة في مناخ عاصف.

كنت كل ما كتبت شيئاً، أعرضه على زوجتي، وقد نهلت من الأدبين
الإنكليزي والفرنسي في الجامعة، ما جعلها ذات باع في منهجية النقد
والملاحظة، أما من الأدب العربي، فالإرساليات الأجنبية عدو ممين.

خلال نوبات الألم الطويلة بالرغم من المسكنات، كنت أنسل ليلاً
من غرفة النوم، هارباً إلى غرفة مجاورة، متمنياً أن أبكي، علّ في البكاء
ما يلهيني عن نفسي. لكن باب البكاء كان موصداً بوجهي، وأن باباً
آخر كان مفتوحاً على مصراعيه.

هو باب الابتسام حتى حدود الضحك. باب بدرتتين. أحدهما
الفرح... وثانيتها الشكر للظفر بالنجاة. قائلاً: سبحان الله كيف تسير

الأمور بالمقادير.

والله... برغم كل الألم، كنت أضحك تجلُّداً. وفي إحدى المرات أكثر ما أضحكني قهقهة... هو تعليق زوجتي على ما قدمته لها للإطلاع. وقفت أمامي، وحارت في اختيار كلمات تُعلّقُ بها على ما قرأت، صمتت لبرهة... وقالت: «هذا النص مفشكّل مثل أعصاب رجلِك».

العهد الثاني الذي قطعه على نفسي، هو زيارة السفينة القائدة في أسطول الحرية «مافي مرمرة» بعد عودتها إلى اسطنبول، والوقوف في المكان الذي أُصبتُ فيه.

لقد عودتنا تركيا على المفاجآت، وها هي اليوم «تمعن» فيها، فتدعو جميع المشاركين في «أسطول الحرية» للاحتفاء بالسفينة في نفس المكان الذي انطلقت منه بعد استعادتها وترميمها.

ترسو السفينة في ميناء «كاناكال» التركي الذي يبعد عن ميناء اسطنبول ثلاث مئة كيلومتر أو أكثر بقليل.

المطلوب منا أن نذهب إليها، والتوجه بها ليلاً نحو اسطنبول، لنصل منتصف اليوم التالي حيث الاحتفال والحشود في الميناء. كانت السيارة وسيلتنا للسفر.

ما أن تترك اسطنبول بصخبها وضجيجها، حتى تُلفي نفسك في أحضان الطبيعة.

سهوبٌ تنداح أمامنا ومن حولنا، تتغذى برزاد خفيف اشتاقت إليه. تتوتد (من وتد) هذه السهوبُ بجبالٍ تنساب بلطف نحو البحر. يتكىء الواحد منها جنب الآخر انبساطاً كرجلين يتسامران، وقد افترشا

الأرض ليبللا رجليهما بماء الشاطئ. المدن والقرى كوشم متناثر في وجه الطبيعة. أعداد من البشر تهاهى مع قطعان من الغنم، لا تمايز بينها إلا بطول البشر. هم الغجر وما أدراك ما الغجر. نساء في الحقل تعمل، ورجال في البيت يبذرون.

تستأذن الشمسُ الجبلَ اقتراباً، فيستأذن الغروبُ الظلامَ انسياباً. لكأن الظلام مولج باخفاء العلاقة الحميمة بين الشمس والجبل. وتوغلُ في مساحة الأرض والغجر صوب تخوم البلقان، لتعرضك لوحة فيها سهمان، و عليك أن تختار بين وجهة بلغاريا أو يونانستان. أنت تتجه غرباً وتركيا تتجه شرقاً. لقد ضللنا الطريق قليلاً، فيعيدنا إلى «صوابنا» شرطي يوحى لنا بوجهة السير الصحيحة... إلى ميناء «كاناكال»...در. إلى حيث تنام، تلك التي سهّرتك طويلاً وأنت تحلم بها.

فتحت السفينة ذراعيها وغمرتنا كأمر رؤوم، ورحنا هائمين على وجوهنا نبحت عن بعضنا، ونستعيد ذكرياتٍ عزيزة، وتفاصيل حميمة. كانت قد نُسجتُ بيننا صداقات وعلاقات، ولا بدّ من البحث عن اصحابها واحداً بواحد.

- يا آدم أين ذلك التركي الذي كان يجالسنا، لماذا لم يحضر إلى السفينة حتى الآن؟

- يا أسفي، هل تعلم ماذا حلّ به يا أستاذ؟

اسمه أور سليمان / يا للصدفة إنه ابن عمي / هو رجل تركي

غني جداً، بل من أغنى أغنياء تركيا، بكى حين قيل له لن تذهب إلى غزّة، لأن عدد الأتراك قد اكتمل.

كان رفضُ مشاركتِهِ نابعاً من كونه رجل عجزوز، لا يتحمل مشاق السفر، وكان يكفي أن يوسط صديقه رئيس الوزراء حتى تتم الموافقة، لكنه لم يفعل. وحين جاءت الموافقة لاحقاً بكى ثانية، واستأذن زوجته بالسفر وكتب وصية حدد فيها واجباته. بعد المجزرة وُجدت نسخة من الوصية على متن السفينة. إنه يرقد الآن في المستشفى في غيبوبة عميقة (كوما) جراء إصابة في الرأس.

* * *

- فرقانُ ابنُ التاسعةَ عشرةَ ربيعاً. وُلد في نيويورك. كان يكتب يومياته على السفينة ساعة بساعة. بعودة «مافي مرمرة» إلى تركيا، عُثر على ورقة من أوراقه تقول: «لا أعرف من أحبُّ أكثر... أمي أم الشهادة». ثم يقول: «لتعذرني أمي إنني أحب الشهادة». خلال لقاء أردوغان مع أوباما عرض عليه الأول صورة فرقان الشهيد قائلاً له: هذا أميركي أيضاً، ألا تطالب بدمه؟

رفض أوباما مجرد استلام الصورة أو النظر إليها.

* * *

أهلاً أهلاً يا إحسان علمت أنك قد جُرحت... الحمد لله على السلامة.

- يا أخي... ألفتُ شكر لله. دخلت رصاصة في راسي وخرجت من فمي. واخترقت أخرى خاصرتي. تخيل يا صديقي أنني لم أفقد الوعي. وبالنظر لكوني فلسطينياً وأجيد اللغة العبرية فقد سمعت

أحد الجنود يقول لزميله: هذا أبن ال... لم يمت بالرغم من إصابته البالغة. ولأني فلسطيني فقد اشترطوا عليّ في المستشفى ألاّ أحاول الدخول مرة ثانية، وإلا سيسحبون مني أوراقني، فتصبح إقامتي غير شرعية ويطرودوني من فلسطين. رفضتُ التوقيع، فاضطروا لإيصالي إلى منزل الأهل. بدخولي عليهم لم تتعرف أختي عليّ بفعل الإصابة في الوجه.

* * *

- إلّي إلو عمر... ما بتقتلوا شدة. هكذا أجباني أحد العرب الذي أصيب بست رصاصات.

أقسم لك يا أخي، لقد شعرت أن روحي تخرج من رجلي، فحاولتُ سدّ جراحي في الأرجل منعاً لروحي من الصعود.

كان ذلك الرجل «يفرفر» على السفينة كعصفور جميل، عارضاً على النشطاء مكان الإصابة في الرأس، متعجباً من معجزة نجاته من الموت.

وماذا عن العصفور الحقيقي على السفينة؟

كان احد الأتراك قد أتى بقفص جميل فيه عصفور غرّيد. كانت نيته أن يطلقه أثناء وصوله إلى غزة تعبيراً عن الحرية. استشهد صاحب العصفور، ولم يُبلغنا أحد ماذا حلّ بالعصفور. لعله مات عطشاً أو جوعاً أو قهراً، فالجنود «منشغلون» بالبشر ولا وقت عندهم للاهتمام به.

* * *

يوم اسطنبول كان مشهوداً، حين وصلتُ «مافي مرمرة» إلى الميناء. مئات الآلاف تقاطروا للاحتفال بها، حتى ليتمكن القول إن اسطنبول المدينة قد زحفت نحو اسطنبول الميناء. كان الاحتفال مهيباً، وكانت

اعلام فلسطين ترفرف في كل الأنحاء جنباً إلى جنب مع صور الشهداء التسعة الأتراك.

من يقرأ في وجوه الناس، ويسمع شهاداتهم وهتافاتهم، يتبين أن تركيا قبل مجزرة الأسطول هي غيرها بعدها. إنه الحد الفاصل بين تركيا أمس وتركيا المستقبل.

كانت كلمات ممثلي الهيئات الدولية المشاركة في أسطول مرمرة واضحة في تصميمها على اطلاق الأسطول الثلاثيني مطلع الربيع القادم. وقد جاءت كلمة مطران القدس هيلاريون كبوجي تتويجاً وقسماً رددته الألوف وراهه، وعهداً على متابعة الطريق.

بكى الألوف حين سمعوا اصراره على رؤية القدس قبل مماته، وقد جاور التسعين من العمر. وبكوا أكثر حين رددوا وراهه نداء «الله أكبر» عشرات المرات. سقطت الفوارق الدينية على طريق القدس، فإذا الأحبار قادة في اسطنبول على طريق نصره الحق.

المشهد البالغ التأثير كان حين اجتمع رواد الأسطول وأهاليهم وعوائل الشهداء على سفينة مرمرة، وراح كل واحد منهم يستجمع ذكرياته وكأنه يفتش عن وديعة تركها وعاد ليستعيدها. أما الألوف وعشراتها ومئاتها، من اللذين لم يصعدوا إلى السفينة «المباركة المطهرة بدماء الشهداء»، فمن تسنى له لمسها وعناق جدرانها المحاذية لرصيف الميناء فقد ظفر، أما من تبعده المسافات عنها، فقد ارتضى أن يعانقها بالنظر عن بُعد وهي تتوسط تسع سفن تحمل كل واحدة منها اسم شهيد تركي سقط في المواجهة.

عوائل الشهداء تتحب بصمت على السفينة قرب صور أحبائها

التي ركزت في مكان استشهادهم. الصور موزعة في جميع الأرجاء
لكأنها تخومٌ تُحدد معالم السفينة، او وكأنها حراس يتطلعون في كل
اتجاه. صورٌ ينقصها النطق والشهادة بالحق.

* * *

لا شيء مشتركاً بين القاتل والضحية الناجية إلا مكان الجريمة.
كل يعاينها على طريقته.

الضحية تفرح بالنجاة... والقاتل يأسف لفشله في تحقيق هدفه.
الضحية تتألم جسداً، والقاتل «يتألم» خيبة.
الضحية ترمم نفسها والقاتل يرمم مكان الجريمة.

تتطلع الضحية إلى المستقبل ويغور القاتل في الماضي.
ما أن وطأت قدماي أرض السفينة حتى قاداني إلى حيث سقطت
جريحاً.

بالرغم من الإعاقة في الحركة، هرولت صعوداً على الأدراج، تاركاً
العكاز لزوجتي، فبدت وكأنها هي المصابة، حماها الله، لقد «أصيبت»
مرتين.

بحثت عن الدم فلم أجده. بحثت عن مكان الرصاصتين اللتين
اخترقتا رجليّ فلم أجده، لكن صورة الشهيد التركي المنصوبة في
المكان «دلّني» على مكانها. كأن عينيه كانتا تنظران إليه.

تقدمت متفحصاً، فإذا بأثر باهت لهما يؤكد وجودهما. ودِدْتُ لو
أثقبُ سطح السفينة لألاحق مسرى الرصاصتين فأحتفظَ بهما شاهديتين
على الجريمة.

* * *

كما أشرت في البداية، يعود التأخر في كتابة هذه القصة، إلى حجم الآلام التي انتابتنى طوال هذه المدة، وإلى نوعية الأدوية التي كنت «أسفها» تسكيناً للألم في العصب المجروح نتيجة رصاصة «منتظرة» من طائرة منظورة. هذه الرصاصة تحمل سمة الغادرة بتوقيتها، بقدر ما تحملها بالتوصيف.

في كل يوم تأخير، كنت أخشى ضياع بعض التفاصيل، فالوقت، كما يقال، حليف النسيان.

والسبب الآخر للتأخير، هو عدم استقرارى على أسلوب أنقل به هذا الحدث الذي هز ضمير العالم، وأنزل الناس من «المهاجع» إلى الشوارع، كأن حريقاً حلّ ببيوتهم فهرعوا يطلبون النجاة من جريمة تحدث عنها أصدقاء المجرم بامتعاض ومقتٍ... فما بالك بالآخرين؟ هل أكتب بالأسلوب الذي اعتمده في الكتابة عن الرحلة الأولى إلى غزة، في سفينة «الأخوة اللبنانية»، في شباط / فبراير / 2009، وهو الأسلوب السردي الذي جمع بين القصة بلا خيال، وبين الوقائع بلا وثنائق، فاخترت لها عنواناً «غزة في مرمى البصر»؟ أم أعتمد التوثيق اليومي، فأدوّن بالساعة والدقيقة مشاهدات حية جارية؟

وما زاد في حيرتي أيضاً هو اختيار عنوان لهذه القصة. هل أختار العنوان ذاته لهذه الرحلة المشابهة للأولى، وإن اختلفت وقائعها في الزمان فهي لم تختلف كثيراً في المكان؟ كيف أختار «غزة في مرمى البصر»، وأنا لم أرها هذه المرة، ولم تكن على مرمى بصري...؟ في المرة الأولى غسلنا

وجوهنا بمياهها الاقليمية، وعلى بعد أميال منها لا تتجاوز أصابع اليد الواحدة، كدنا نسمع أصوات الطائرات المُغيرة على البشر والحجر والشجر. كان قد استقر بي الرأي على عنوان لهذه القصة هو «معركة ذات الصواري»، وهي المعركة البحرية الأولى في الإسلام، التي قادها كاتب وحي الرسول الأكرم (ﷺ) عبد الله بن أبي سرح، في السنة الواحدة والثلاثين للهجرة. هي معركة التحمت فيها جيوش المسلمين مع جيوش الروم في «كيليكيا»، واشتبكت فيها السفن بالسفن والصواري بالصواري، فكان المسلمون في هذه الحال يقاتلون وكأنهم على اليابسة. وبسبب من بأسهم وإيمانهم، انتصروا نصراً ميبناً، وانهزم الروم وارتدوا عن البحر إلى البر، فأصبح البحر الأبيض المتوسط «بحيرةً عربية إسلامية». وبقدر ما استهواني عنوان هذه الواقعة للتشابه والتشبه، قلت في نفسي: «تمهل، لعل عنواناً آخرَ يفي بالغرض.

وعلى صحة اختيار هذه العناوين لقصة عن مجزرة وقعت على سفينة طبقت شهرتها الآفاق، سألت نفسي معاتباً: «هل يجوز إغفال ذكرِ «مرمرة» من العنوان وهي السفينة «القائدة» في أسطول الحرية، وهو الاسم الذي اختاره أحرارُ أجانب، كانوا بدفاعهم عن غزّة ينتصرون للقيم الإنسانية، ولروح العدالة، وللحق في الوجود؟»

وخلافاً لمقولة هيرودوتوس «أنت لا تعبر النهر ذاته مرتين»، فقد استهواني عنوان يقول «أنت تعبر البحر مرتين»، تأكيداً على رحلة كسر الحصار الأولى، حين امتطينا البحر نفسه وسلكنا الطريق نفسها.

كانت هذه العناوين كسرب من طيور الرهو، ما إن يتقدّم أحدها على الآخر حتى يستدير حول نفسه وحول السرب في آن، ليصبح في

مؤخرة السرب. على أنّ «طائراً متميزاً» لفتني، فظلّ في مقدّمة السرب لفترة أطول من غيره. فكان العنوان: «ستون دقيقة هزّت العالم».

لقد استوحيت هذا العنوان من الناشط المدني الأميركي جون ريد الذي عايش الثورة البلشفية في روسيا القيصرية وكتب عنها قصته الخالدة بعنوان «عشرة أيام هزت العالم».

وبالرغم مما بين الحدين من فارق الظروف والتأثير، فإنني أعتقد أن اختياري لهذا العنوان يجد تبريره في التدايعات والتأثيرات وردود الفعل المتلاحقة التي أحدثتها الاعتداء على «أسطول الحرية» على المستوى العالمي.

غاب عني هذا العنوان لفترة. وخلال البحث عنه، وقعت على عنوان اعتقدت أنه يفي بالغرض، واستعضت بالله بديلاً وقلت: إن عنواناً كـ «حجّ في البحر» هو قريب من الواقع، «فالحجيج» على السفينة ذكروا «غزّة هاشم» مئات بل آلاف المرات، وقبرُ هاشم بن عبد مناف، جد الرسول لأبيه (ﷺ)، موجود في غزّة.

خلال كتابة هذه السطور في يوم صيفٍ لاهب، بدأ نور الشمس يثقل عليّ الكتابة في غرفة شرقية من البيت، تزداد حرارتها «بسرعة النور»، حتى خلت أن الشمس قد «هربت» من الحرّ لتتقياً في غرفتي. في تلك اللحظات أخذ العرق يتصبّب مني منحدرًا من صلعتي إلى عينيّ، فطغت غشاوة على ذهني، وأخذني دوار الأفكار والرؤى والأحاسيس، فألقى القلمُ بنفسه على الأرض، وضاعت مني العناوين، ورحنا يبحث بعضنا عن بعض، فلم يعثر أحد على أحد.

لقد قرأت «العنوان العريض» للمجزرة قبل حصولها بعدة أيام. وقراءة الخبر هذا قبل حصوله، لا تحتاج إلى مبصّر أحياناً، بل إلى مبصّر يجيد الملاحظة.

كانت وفود المشاركين تتداعى إلى النادي الرياضي المسمى «الإستاد»، في مدينة أنطاليا الساحلية التركية، حيث التجمّع للانطلاق إلى الميناء المعدّ لرحلة «أسطول الحرية». رجال ونساء وشبان في مقتبل العمر. مسلمون ومسيحيون ويهود، عرب وأجانب. القاعة كبيرة جداً، «يفضّح» ضيق مساحتها العدد الكبير من المشاركين، بحقائبهم وأدواتهم الشخصية، بحناجرهم العطشى للبرّح والهتاف بما يُكنّون وما يضمرون. بترديدهم عبارة «الله أكبر» لدى ذكر «الأقصى»، أو لدى كل قولة يقولها ناشط، أو لدى كل صرخة يطلقها إمام مسجد القدس الشيخ رائد صلاح، أو دمعة تنسال على خدّ مطران القدس في المنفي هيلاريون كبوجي. ومع كل صرخة أو نداء، كانت «ترتعد فرائص الجدران»، حتى لتخال أنّ هزة أرضية تعصف بالمكان.

في تلك اللحظات الصاخبة، ومع تزامم الأصوات الراحدة، يأتي صوت العزيزة رحاب مكحل مديرة المركز العربي الدولي للتواصل والتضامن من بيروت، مستفسرة عمّا يجري، وعمّا يؤخر انطلاقة الأسطول، فأخبرها أن الجو عابق بالعواطف الجياشة، وهو مشحون بالإصرار والتحدي، فإذا نفذ العدو نيته باقتحام الأسطول وأسر الناشطين فإنّ مجزرة «نتظرننا» على الباخرة، وسيصل «الدم للركب»

كما يقال. تطلب رحابُ المزيدَ من التوضيح فأقول لها: «إسمعي ماذا يجري»، وأفتحُ الهاتفَ المحمولَ على المسموع، لتسمع هتافات الإصرار على الإبحار، وعلى نصره أهلِ غزّة، مهما كانت الأثمان فتقول: «الله يحميكم»، ونهي المكالمة.

بدأت الفنادق تعج بالوافدين إلى انطاليا بتاريخ 23 / 5 / 2010. وكان موعد الانطلاق محدداً في اليوم التالي للوصول، لكن سلسلة من المَعوقات أَخَرَتِ الموعدَ أسبوعاً كاملاً، أفدنا منه للتعارف والتواصل والتنسيق. كان الفندق الذي نزل فيه الوفد اللبناني مخصصاً للاجتماعات المركزية، فأعضاء الوفود يقصدونه لاستلام بطاقاتهم من هيئة التنسيق، و لمتابعة بعض التطوّرات، حتى لبدا الفندق كخلية نحل.

تزامن وصولي إلى الفندق مع وصول المطران هيلاريون كبوجي إليه آتياً من روما. وكان لتوه «هارباً» من المشفى بعد عملية جراحية في القلب، وقد اشترط عليّ اختيار الفندق نفسه، لأنه على حد قوله، قد «جربني»، واستمتع برفقتي في الرحلة الأولى، آملاً تكرار التجربة في «أسطول الحرية».

ما إن وصل المطران إلى الفندق حتى انفرط عقد التنظيم الذي تمتاز به خلايا النحل إلى ما يشبه عجقة سير بيروتية أمام غرفته. مراسلون ومعجبون عرب وأجانب، نشطاء من كل الجنسيات. فضوليون ومحبّون جاؤوا لتحيته، ما جعلني أتعلم مهنة جديدة، هي تولّي «تنظيم السير» أمام غرفة المطران وداخلها.

كانت «أرتال النمل» تقاطع في ما بينها، فتحدثُ «اصطدامات» خفيفة، سرعان ما تَشفى منها «الضحية»، ويعقبها اعتذار وتعارف.

كان الفندق قديمَ العهد متوسطَ المستوى، خالياً من التجهيزات المتطورة ووسائل الخدمة الحديثة، باستثناء تلفاز كبير يتصدر غرفة الاستقبال. وبالرغم من خلو الفندق من حوضٍ للسباحة، كنتُ كلما اتصلتُ بي عائلتي، أجبْتُها بأني ملتزم نصائح الطبيب بالرياضة الدائمة والسباحة المنتظمة في حوض الفندق «ذي النجوم الخمس».

لم يكن لدينا وقت نضيعه باستثناء ساعات الغروب، فنصطحب المطرانَ إلى شاطئ إنطاليا الجميل، حيث ينداح البحر أمامنا. في تلك الأمسيات، وبدون استدراج منا، كان المطران مندفعاً، يروي نشأته وحياته في فلسطين وكأنه يتحدث للمرة الأولى. خلال هذه الأمسيات تعرفت على مأساة أبي محمد شكر - أبي الشهداء - ربّ العائلة التي قضت جميعُها بقصف منزله في بلدته البقاعية النبي شيت، إبّان حرب تموز 2006.

خلال العودة إلى الفندق، لا يكفّ «هيلاريون» عن شكري لدعوته «للجلوس إلى البحر»، ففي هذه الجلسات ترويح عن النفس بعدما وصل الهمّ عنده «للرقبة لا للركبة»، كما يحلو له أن يردّد.

* * *

كان الجالس في صالة الاستقبال في الفندق، كمن يحضر عرضاً للرسوم المتحركة، يوجب متابعة الحركات والتصرفات، كي لا يفوته أيُّ تفصيل... ليغمّره بعد كثير من التركيز شعور بالإرهاق يدعو «للهرب» إلى غرفته، وإلى مجالسة أنيس آخر.

ليلة السفر إلى تركيا، أهداني الصديق ياسر قشلق «السلام المفقود». وهو كتاب يروي مذكرات وزير خارجية مصر الأسبق الدكتور محمد ابراهيم كامل عن مباحثات واتفاقات «كمب ديفيد»، التي أدارها أنور السادات «بعظمة بالغة»، كما يقول الكاتب ساخراً.

لقد استقال محمد ابراهيم كامل من منصبه في وزارة الخارجية المصرية اعتراضاً على مباحثات «كمب ديفيد»، وقد جاءت استقالته ليلة التوقيع على المعاهدة في نيويورك، ففعل عائداً من واشنطن إلى بلاده من دون المرور بنيويورك. هذه الاستقالة كانت الثالثة لإثنتين مُعترضتين على نهج السادات في المفاوضات، الأولى لوزير الخارجية آنذاك محمد فوزي، والثانية لوزير الخارجية اسماعيل فهمي.

يروى محمد ابراهيم كامل أنه لم يكن ضد مبدأ المفاوضات لاسترجاع سيناء ولترسيخ الحل الشامل للقضية الفلسطينية، وأن اعتراضه كان منصباً على التنازلات الجمة وعلى الإهانات التي كان يتعرّض لها الوفد المصري من قبَل الفريق الإسرائيلي للمفاوض.

يروى الكاتب أنه أثناء رئاسته للجنة السياسية المصرية للمفاوضات،

وخلال اجتماعه مع وزير خارجية «إسرائيل» في القدس آنذاك، دخل عليهم رئيس وزراء «إسرائيل» مناحيم بيغن وخاطب وزير خارجيته قائلاً: «لماذا تضيِّعون وقتكم مع هؤلاء»، كما التفت إلى محمد إبراهيم كامل قائلاً له: «هل أنتم مجانين لتطالبوا بالضفة الغربية أرضِ اجدادنا... هل طلبنا إليكم يوماً أن تنسحبوا من القاهرة، وهل نحن مجانين حتى نقبل بمناقشة هذا الطلب؟»

أنا في اسطنبول في رحلة إلى غزة، فيأخذني محمد إبراهيم كامل إلى الضفة الغربية... وأنا أقرأ هذه المذكرات عن صلَف «إسرائيل»، وما سمعته عن تهديدات باعتراض الأسطول تيقنْتُ أن مجزرة كبرى سيتعرّض لها «أسطول الحرية». فإسرائيل «لا تمزح» في القضايا التي تتهدد أمنها كما تقول، فكُرمى لعيون جنديين اختطِّفاً، دمرت لبنان في تموز 2006. وبسبب صاروخين أطلقا من غزة، دَمَرَتْ غَزَّةُ على رؤوس أهاليها، فكيف ستسمح لأسطول يقلُّ أناساً من كل القارات تجمَّعوا «لينفجروا» حباً بأهل فلسطين، وعلى مقربة من مفاعل «ديمونا» الصهيوني؟

وما زادت من حدسي الذي وصل حد اليقين المسبق بحصول المجزرة، لم تكن الوقائع على الأرض في تركيا أو غيرها فحسب، وإنما قناعة مسبقة زادها رسوخاً، اطلاعي على الكتاب المتميز الذي أصدره كلُّ من د.ستيفن والت - عميد كلية كينيدي في جامعة هارفرد، - ود. جون ميرشايمر، - برفوسور العلوم السياسية في جامعة شيكاغو - بعنوان «اللوبي الإسرائيلي والسياسة الخارجية الأميركية». هذا الكتاب يتحدث بمرارة عن سيطرة اللوبي الإسرائيلي على مفاصل القرار

الخارجي الأميركي بحيث يعتبر الكاتبان فيه «أن إسرائيل أصبحت عبئاً على أميركا يجب التخلص منه... دون التخلي طبعاً عن دولة إسرائيل، بوجودها وتفوقها وديمومتها».

لقد رَوَّج الكاتبان لكتابهما على غلافه بجملة تقول: «بعد المقالة التي هزت العالم بجرأتها».

يروى الكاتبان ص -11- <> أن الرد على مقالتهما التي تنتقد إسرائيل جاء حابساً للأنفاس، فبحلول تموز / يوليو / 2006 سجل موقع كلية كيندي 275 ألف قراءة أو تصفُّح للمقالة، وتلقينا طلباتٍ بترجمة المقالة أو إعادة طبعها، وولدت المقالة، كما هو متوقع، زوبعة نارية من الانتقادات من مجموعات نادرة وأفراد في «اللوبي»، ونددت بنا «الرابطة المناهضة للتجريح»، كما ندَّد بنا كتَّاب مقالات الرأي في عدد من الجرائد، بوصفنا مُعادين للسامية».

يضيف الكاتبان ص (26): <> يصعب الحديث عن تأثير «اللوبي» في سياسة أميركا الخارجية، أقله في وسائل الإعلام الرئيسية في الولايات المتحدة، من دون اتهامك بمعاداة السامية، أو بأنك يهودي يكره نفسه».

ويضيف الكاتبان ص (95):

«ويعطي الرَّدُّ على كتاب الرئيس الأسبق جيمي كارتر بعنوان «السلام لا الفصل العنصري» مثلاً كاملاً على هذه الظاهرة، ففي حين يدافع كارتر «عن حق إسرائيل في الوجود في وسط آمن وسلمي»... وبرغم ذلك، وبسبب أنه أوحى أن سياسات إسرائيل في الأراضي المحتلة تشبه نظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا»، فقد شنَّ عدد من هذه المجموعات

حملة تشنيع قبيحة ضده، واصفين إياه بأنه «معاد للسامية وكاره لليهود، بل إن بعض النقاد اتهموه أيضاً بأنه متعاطف مع النازيين».

وأنت تنهي قراءة هذه السطور، يكاد ينفذ الهواء من صدرك، ليعود بزفرة طويلة مترافقة مع التساؤل والعجب.

هل هذا الكارتر «أبو كمب ديفيد» الذي حاول طمس قضية الشعب الفلسطيني، وأخرج مصرَ من نفسها ومن دورها التاريخي، هو كارهُ لليهود ومتعاطف مع النازية ومعاد للسامية؟

ويذهب بك الغضب بعيداً... فتلتقي أحياناً مع أعدائك فتقول: كارتر بالتأكيد ليس بكاره لليهود، ولكنه بفعلته هذه معاد للسامية التي نحن أبناؤها. وينتهي بك العجب إلى السؤال... إذا فعل يهود أميركا بكارتر ما فعلوه، فماذا سيفعلون بنا في البحر الأبيض المتوسط.

وما زاد في يقيني بحصول المجزرة، هو تأخر انطلاق الأسطول أسبوعاً كاملاً. صحيح أننا كنا نمضي الوقت بالإجتماعات والتحضيرات والاتصالات، لكن الوقت كاد يقتلنا مع وصول أبناء من هنا وهناك، تفيد أن باخرة الشهيدة راشيل كوري الآتية من إيرلندا قد عطلها «الموساد» في مينائها، فتأخر إبحارها يومين. ونقلَ إلينا البريد الإلكتروني أن الباخرة المنطلقة من اليونان قد فشلت في الإبحار بسبب نجاح «الموساد» في تعطيلها، فتأخر إبحارها أيضاً ليومين إضافيين، وأنبأنا الهواتف النقالة أن الضغط الدبلوماسي الأميركي - الإسرائيلي على حكومة قبرص قد نجح في منع النواب الأوروبيين من الانطلاق من ميناء قبرص، فاضطروا للانتقال إلى قبرص التركية للإلتحاق بالأسطول المنتظر في مدينة أنطاليا التركية.

أخبار إعاقة الإبحار تتواتر وأعصاب الناشطين تتوتّر، مشدودةً على وتر انطاليا - غزّة، حيث تتناغم مع هذا الوتر أصواتٌ وأناشيدٌ تؤكد النية في الإبحار والوصول إلى الهدف مهما بلغت التضحيات.

* * *

على الرغم من فنادقها التي تعج بالسواح، فإن «إنطاليا» هي مدينة هادئة على العموم. طيلة إقامتنا فيها كان المناخ شبه معتدل، مائلاً إلى الحرارة. لم نتمتع بنسمة باردة، ولم نر ورقة شجر تتحرك، أو غصناً يتمايل، أو حتى غيمة شفافة في السماء.

يبعدُ الميناء بالسيارة عن الفندق نصفَ ساعة. وبعده عشر دقائق سيراً على الأقدام من حيث أنزلتنا الباصات. لكن، وبسبب ازدحام النشاط أمام مدخل الميناء للتأكد من هوياتهم وعرض حقائبهم على التفتيش، تمطت الدقائق العشر وطالت لكانها ساعات. وفجأة فعل الزمان فعّله بالمكان، فاصطفقت أبواب الميناء، واعتري الأعلام المرفوعة مرضُ الرَّجفة بعدما كانت في شبه شلل، وراحت الأشجار تنتفض بانفعال ونزق كراقصة فردت شعرها وراحت تلوح بعنف برأسها، والغيمة الخفيفة الشفافة التي افتقدناها في المدينة، حضرت بكل ثقلها في الميناء سوداءً داكنةً كثوب الحداد. وفعل التواطؤ بين الريح والغبار فعّله في عيون الناس... فرُفعتِ الشمس.

ما هذا الوداع الغاضب، وقد مئنا النفس بوداع مختلف؟

ربما أراد غضبُ الطبيعة أن يبلغ رسالةً مفادها أن «إنتبهوا للبحر»... ولا أدري لماذا قرأتُ الرسالة بالمقلوب، فألثفتُ إلى المطران قائلاً: «ما هذا الوداع الجميل؟».

ما كنت لأهتم بنفسي، بل كان همّي، وجعُ المطران الذي يعاني من

تورم في رجليه وصعوبة في الحركة. وأنا في هذه الحالة «العاشق الوحيد لتلقى تبعات الهوى على كتفي». المطرانٌ وحقيبته، وأنا وحقيبتي... وشمسية متمردة متواطئة بدورها مع الريح، رفعتها فوق رأسه تحاول أن تخطفَ نفسها مني.

بربكم كيف أستطيع أن أجرّ حقيبتين، رافعاً في الوقت نفسه شمسية فوق رأس رجل آخر، وان أرد على مكالمة هاتفية في ظلّ مكبرات الصوت التي تبث الأناشيد، وأن أكافح للتقدم خطوة خطوة، محافظاً على دوري في تفتيش الحقائب وعرض جوازات السفر؟ حصان، أو قل، أي حيوان آخر، يجرّ عربتين بيد واحدة، والأخرى مشدودة إلى فوق، يردُّ على مكالمة هاتفية حاصراً هاتفه بين الأذن والكتف، هل هو إلا رجل يوحى بالجنون؟

هذه المكالمة من لبنان. فلا بد من الحديث ووصف المشهد للمتصل.

هذا رقم أختي هلا في الضيعة.

- ألو يخني (يا أخي) ببوس إيدك رجاع ع لبنان.

- كيفك يختي؟ ولو. خممتك حتقولي إن شاء الله بترجع

بالسلامة!

- يخني، بترجّاك رجاع هلق ع لبنان، بصرانة بنام (منام) عاطل.

وتخنفها غصّة، ثم تنفجر ببكاء مسموع... وأصمت متفهماً عواطفها.

بعد برهة...

- ألو، يخني أنا أختك هُتاف... كيفك يخني، «شو بدك بهالخوتة»...

الله يقوُّيك، تروح وترجع بالسلامة.

- هلا: ألو يا هاني ما تحرقلي قلبي رجاع ع لبنان.

- ولو يختي.. معي ناس شو حيقولوا عني إذا رجعت؟

- شو ما قالوا ببوس إيدك رجاع.

- طيب يختي، خليني وصل المطران كبوجي عالسفينة واعتذر

منو ومن الشباب، وقلهن إنو إختي ما خلّتني سافر!

ما إن أدركت هلا لهجتي والمضمون، وأني لن «اسمع الكلمة»،

حتى تركت الهاتف إلى دموعها، ومن ثمّ إلى صهري الواقعي «حسن»

الذي قال: «تروح وترجع بالسلامة».

* * *

كنا لا نزال في مؤخرة الحشود قبل أن يتعرّف مسؤول من لجنة التشريفات إلى المطران، ويصطحبه بطريق جانبي إلى مدخل السفينة، فأستفيدُ من حُظوة وجودي إلى جانبه، لنكونَ من أوائل الداخلين إلى «جنة» سفينة «مرمرة».

ما أن تصل إلى السفينة حتى تشعر براحة نفسية بالغة، وكأنك قطعت نصف المسافة براً إلى غزة.

كانت السفينة مدينةً مقسمة إلى عدة «مقاطعات» فجاء توزيع الركاب على مقصوراتها بحسب توقيت دخولنا إليها، دون تمييز بين شخص وآخر.

بالمقارنة مع «سفينة الأخوة» القديمة العهد، فإن سفينة «مرمرة» هي «قصر مُنيف» في عرض البحر. كانت «سفينة الأخوة» مخصصةً لشحن البضائع فحسب، أما هذه، فهي سفينة سياحية، استوعبت واتسعت لما يقارب سبعمائة ناشط. وكان من حظي أن أكون في المقصورة نفسها مع الشيخ رائد صلاح رئيس الحركة الإسلامية داخل الخط الأخضر في فلسطين، تلك الشخصية المميّزة التي سجلت الرقم القياسي في الدخول إلى سجن الاحتلال والخروج منه. صافحته و«حملته جميل» أننا نعتصم لأجله في بيروت، وأنه كان «يرهقنا» لدى كل اعتقال يتعرّض له من أجل القدس.

وصلت «مرمرة» إلى الميناء قبلنا فانظرّتنا، أمّا السفن الأخرى

فانظرونها. سفينة الشهيدة راشيل كوري وسفينة شحنٍ محملةٌ بأربعة آلاف طن من مواد البناء، كان رجال أعمال جزائريون قد اشتروها من تركيا وسفينة كويتية جُمعت حمولتها من تبرعات شعبية. وسفينة أخرى تحمل الاسم «8000» وهو رقم كتب بخط كبير على طول السفينة في إشارة إلى عدد الأسرى المعتقلين لدى قوات الاحتلال. أما السفن الثلاث الأخرى التي تحمل نواباً أجنباً وناشطينَ في مجال حقوق الإنسان، فقد تأخر وصولها إلى ما بعد التاسعة ليلاً.

كان الانتظار ثقيلاً ومُوحشاً وسرعان ما خَفَّفه وأضفى عليه مسحة من الأنس والفضول، هو تمايُّل السفينتين الأخرين قربنا، والتفاهُما بين الحين والآخر من حولنا، كعقد فريد طوقَ عنق شابة في ليلة زفافها. تدرك «الشابة» أن «عقدها الفريد» ينقصه بعض حبات اللؤلؤ... لكنها مطمئنة. فالعقد يزيّن عنقها دون غيرها، وهي موعودة باستكمال الحبات قبل حضور المدعوين. يطول الانتظار تلهفاً وصبراً وتحديقاً في الساعات، وتطلّ من البعيد البعيد أنوار «اللؤلؤ» كأنها خارجة لتوها من أعماق البحر، تقترب بخطى وثيدة، مرسلّة أضواء خافتة هامسة، كأنفاس حبيب لا يحسّ بها إلا الحبيب.

«مافي مرمرة» هي القائدة بحجمها، وعديد ركابها، وهويتها التركية. فيها مركز القيادة ومركز الإعلام.

تنطلق السفن عادة ببطء... ولولا رؤيتنا للقبطان «يحررها» من قيدها في الميناء لما أدركنا أن سفينتنا تتشاءب.

وعلى بُعد آلاف الأمتار تحركت السفن الأخرى بموازاة الأولى.

كم وددنا لو يضيقُ البحر فتتصافحَ.

اختار النشطاء لحملتهم قيادة من 12 مندوباً، مثل العربَ فيها مندوبون من مصر والجزائر ولبنان. وسلّمت القيادةُ رئاستها لرئيس مؤسسات الإغاثة الانسانية التركية IHH. السيد بولنت يلدريم. رجل قليلُ الكلام، كثيرُ الحركة بعينه. اتفق الجميع على إعطائه الكلمة الأخيرة والقرار الأخير في كل صغيرة وكبيرة.

جمع غفير من الرجال، «يطلبون يدَ عروس واحدة»، يرحلون بعيداً، محمولين بأهلهم وأحبّتهم والدعاء. محمّلين بالعشق والبخور والهدايا النفيسة، كرمى لعروس يكاد يقتلها التلهّف للوصال. اليوم تُزفّ عروس في السجن صارخةً من وراء القضبان وا حبيباه... فيجيبها الحبيب ها أنذا.. لبيك.

* * *

تدير السفينة ظهرها لليابسة، وأنأى عن الجموع «المهتاجة» تيمناً وفرحاً بالإنطلاق، لأسأل نفسي عن «الاستدارة التركية» نحو فلسطين. هذه «التركية» هي بالنسبة لنل كالسفرجلة، مع كل قصّة غصّة. تحتضن قاعدة «أنجريك» العسكرية الأميركية، وتفتعل حكوماتها السابقة بين الحين والآخر مشكلة مياه مع سوريا، فيتقدم رئيس وزرائها مسعود يلماظ أواخر التسعينات إلى الحدود السورية مصرحاً: «أن جيشنا يستطيع الوصول إلى دمشق خلال ساعات». تقيم أوسع وأعمق العلاقات من كل لون وصنف، مع إسرائيل. هذه «التركية» منعتني من دخول أراضيها يوم تطوّعت مع مجموعة من المحامين اللبنانيين للدفاع عن المعتقل لديها، /كحق إنساني له/، الزعيم الكردي عبد الله أوجلان.

ولكي لا «يضبطني» أحد متلبساً بالتشكيك وأنا على متن سفينة تركية، أسائل نفسي: لماذا كل هذه القسوة عليها بعد جملة من المواقف والتحوّلات اتخذتها...؟ وفي حماة التشويش والارتباك الذهني، وحتى لا يتهمني أحد بأني قد أخذتني الحال فانقلبتُ وصرتُ من «أنصار» تركيا أجبت: «لقد قست تركيا بنفسها على نفسها، حين تخلت عن دورها في القيادة المشرقية الاسلامية. تخلت عن الأداة الأولى للقيادة، وهي الحرف. تخلت تركيا المسلمة عن الكتابة بالحرف العربي، حرف اللغة الذي أنزل به القرآن عربياً. غيرت لسانها والقلم ولغة الصلاة، حتى إذا جاء عدنان مندريس ليصلح ما كان معوجاً يكون مصيره الإعدام. هل تركيا بلد غربي؟ أما كان أجدرُ بها وأجدى لها ان تكون

آسيوية واوروبية في آن، بدل ان تلبس القناع الغربي؟
إذا كانت لم تحفل بغضبنا، فلماذا تُغضبُ شعبها وتسبحُ في فضاء
معدوم الجاذبية المشرقية؟

لماذا يقول الكاتب والفيلسوف التركي رضا توفيق: «لقد كانت تركيا
أول دولة في الشرق، فجعل منها مصطفى كمال أتاتورك آخر دولة في
الغرب»؟ ثم يترك الكاتب اسطنبول إمتعاضاً، ليمشرك ويستوطن في
منزل متواضع في ضاحية مدينة انطلياس اللبنانية.

لم تكن هذه الأسئلة نكأً لجراح الماضي بقدر ما هي تطّلع نحو
المستقبل، «ورغبة مني في فتح حوارٍ جديد معها».

لا أعرف كيف اجتاحتني هذه الأسئلة، بعد أن رأيت النشاط
الأترك الممثلين لثمانين محافظة وقضاء وناحية. وبعد أن بدأت
بالتحرر منها يوم قُبلت تركيا إضافة «ملتقى القدس العالمي» أواخر
سنة 2007. الذي ترأس لجنته التحضيرية الأخ والصديق الدائم معن
بشور. خمسة آلاف مندوب وناشط سياسي من ستين دولة، هتفوا
في اسطنبول لفلسطين ووضعوا الخطط والبرامج للحفاظ على هوية
القدس. ولا أدري كيف أحييتُ سلبيتي بعد أن كنت قد استكملتُ
راحتي النفسية تجاهها حين تبنّت تركيا فكرة «أسطول الحرية» التي
حملناها إلى مؤتمر نصررة غزّة وحملها معنا إلى اسطنبول، أخ آخرُ
عزيزٌ من الجزائر هو السيد عبد الكريم رزقي المسؤول البارز في وفد
الجزائر في هذه الرحلة، وفي رحلات أخرى.

غابت مصر الرسمية... فحضرت تركيا. قلت لنفسى. وتساءلت

كما غيري، هل عادت نهائياً، هل إستفاق تَنِينها كما كان يتمنى الشهيد ياسر عرفات، أم هي نصفٌ استدارة والحذر واجب؟

* * *

خليطاً من البشر، أجناساً وأعراقاً وأعماراً كانوا.

يزين لقاءنا على السفينة، عدد من الناشطين اليهود «المعترضين على سلوك إسرائيل»، آثروا أن يكتبوا على صدورهم «نحن يهود، ولسنا صهاينة». منذ عقود... وأنا أدقق بظاهرة الأجانب المتعاطفين مع قضية فلسطين. كنت كلما رأيت رجلاً أشقرَ في مكاتب الثورة الفلسطينية، أقول: هذا أوروبيّ فأرتاب فيه. كنت أخشى تعاطف بعضهم، وأقول: «ربما هم جواسيس». أما على السفينة فتصالحتُ مع نفسي: «ما دمتُ تعتقدُ بعالمية قضية فلسطين، فيجبُ أن تتقبَّلَ مناضلين أمميين إلى جانبك حتى لو كانوا يهوداً». وسرعان ما يلفتك التاريخ إلى الحوادث التي انكشف فيها «المتعاطفون» عن جواسيس، ويعودُ بك الذهنُ إلى اغتيال القائد الفلسطيني البارز خليل الوزير حيث لعبتُ كما يروى، جاسوسة سويدية دورَ صحافية متعاطفة مع الشعب الفلسطيني، فزارت «أبا جهاد» في مقر إقامته في تونس عدة مرات لتدرس طبيعة المكان، وترفعَ تقريراً إلى الموساد، الأمر الذي أدى إلى استشهاد أشهر فرسان الثورة ومخططيها. ويعود بك الذهن أيضاً إلى دور وزيرة الخارجية الإسرائيلية تسيبي ليفني التي ساهمت في قتل قائد فلسطيني بارز.

تقترب مني امرأة سبعينية شقراء وتسالني سؤالاً عابراً، ليتمد الحديث وأعرف أنها ناجية من المحرقة النازية، فأخذني الحرج والشروء في آن... أتسائل: «هل هي تسيبي ليفني أخرى؟» أو أن

(تسيبي) نفسها أصبحت ختيارة إلى هذا الحد...؟ وما أنقذني من الحديث معها، هو عدم إجادتي اللغة الإنكليزية، لأستنجدَ بزميلي في الرحلة نبيل الحلاق، ابن بيروت العزيزة حامل الجنسية الإيرلندية، وأخلدَ إلى نفسي متسائلاً:

هل صحيح أنها ناجية من المحرقة...؟ فقانون الشك يجب أن يبقى سارياً.

تنتشلي من هذه الأفكار المبررة، حادثة مقتل الناشطة الأميركية «راشيل كوري» التي قضت تحت الجرافة الإسرائيلية وهي تتصدى لها لمنعها من هدم بيوت الغزائين، فأجري تسوية ظرفية داخلية، مؤجلاً حسم هذه المعضلة في تفاصيل الصراع التاريخي الدامي بيننا وبين المشروع الصهيوني. أنتحي جانباً لأخوض مع نفسي حواراً فكرياً ونفسياً، حول الشعور بالمظلومية في توحيدها للبشر في لحظات أو مناسبات محدّدة، لأجدَ تبريراً لوجودنا المشترك مع يهود في مهمة إنسانية استثنائية. كان جناح الوقت يميل نحو الفجر حين «استأذني» النعاس، عارضاً عليّ السكون، فألبي طائعاً وأتوجّه إلى مكاني المخصص للنوم، لأجدّه مشغولاً من غيري، فأتدبر امري كيفما اتفق.

الحقائب أكثر من البشر عدداً وحجماً، ومن حق كل منها أن تحتل مقعداً و«تُنازع» صاحبه على النوم في مكان مناسب. وعند تنازع الحقوق، فالأشياء لها حقوق أيضاً.

عندما تضعك المناسبة على متن «سفينة عالمية»، تحاول أن تتكافأ مع هذا الحدث لتجمع أكبر عدد من الصداقات والمعارف والمعلومات. فأنت لا تنفرد بهذا الشعور فحسب، وقد لمستُ هذه الرغبة عند كلِّ

واحد من الناشطين.

وأنا، ساعياً للقاء أحدهم... أجدني هدفاً لأناس آخرين يتجهون نحوى يحدوهم هذا الفضول.

تعرف أناساً بالاسم، وتعرف آخرينَ بالشَّبه. يتقدّم أحدهم معرّفاً عن نفسه، وما إن يلحظ المطرانَ حتى ينصرف عنك نحو الأشهر والأعلم، فالمصافحة والتبرّك به وأخذُ الصورة معه جزءٌ من «المهمة النبيلة» عند هذا الفضولي. وما إن يتعرّف أحد إليك ويعرف من أنت، حتى يطوّقك بالسؤال عن تجربتك في محاولة كسر الحصار. أرجوك حدثنا... وبالرغم من متسع الوقت للحديث في رحلة بحرية، فقد كان الوقتُ ضيقاً إلى حدود المحاصرة.

مهمة تخصيص المطران بغرفة مستقلة كانت كمهمة الباحث في منجم عن درّة نادرة. السفينة مقسمة إلى مقصورات، تتسع كلّ منها لما يقارب المائة. هو يريد أن يستقلّ ليخلو إلى نفسه وللصلاة. لا غرفة مستقلة إلا غرفة مساعد القبطان في الطابق السفلي الخامس، أخلاها من حوائجه كرمى لعينون «الشيخ الجليل».

هي غرفة أشبه بالسجن الانفرادي، حارة جداً، تفتقر لتهوية تنعش ساكنها. تنزل إليها بأدراج حديدية شديدة الانحدار متعرّجة من طابق إلى طابق. الدرج ضيق جداً، لا يتسع إلا لشخص واحد، فكيف تستطيع مساعدة هذا «الشاب» التسعيني على النزول وهو بالكاد يستطيع التحرك على رجليه المتورمتين، وقد أثر أن «يختم جراحه» بيديه ليفتح رحلة طويلة جديدة في مسار رحلته الطويلة القديمة.

من الطابق السفلي الخامس إلى الطابق العلوي، حيث الصحافة

والإجتماعات، وتناول الوجبات. رحلة طويلة تنهك الشباب المتوثب، فكيف برجل قد بلغ من العمر عتياً، يجهد نفسه على مدار اليوم، ليضفي على هذه الرحلة بعداً إضافياً، ونكهة خاصة ورمزية بالغة.

تحوّلت مهمتي من مجرد مشارك في رحلة كسر الحصار، إلى مُرافق أيضاً للمطران لإعانتته مخافة التعثر والسقوط، وقد حالفني الحظ للتوفيق بين المهمتين، فأديت مهمتي كمرافق بنجاح، فلم أوفر اجتماعاً أو حلقة متلفزة إلا ودعوته للاشتراك فيها.

بسبب الألم والتورّم في رجليه، كنت أرجوه كي أساعده بغسلهما بالماء الساخن والصابون، علّ في ذلك تسكيناً للألم. كنت ألحّ وأستجدي... وكان يرفض ويتسم... لأنتهي إلى سؤاله: «لماذا تحرمني من إحدى صفات السيد المسيح (ع) الذي كان يغسل أرجل تلامذته، ألا تريد أن تعترف بأنك من تلامذتي...؟» فيضحك ويصمت.

كان «دوامي» معه يبدأ عند التاسعة صباحاً، أقصدُ غرفته لاصطحابه إلى أعلى السفينة بعد أن يكون قد أنهى صلاته الصباحية المعتادة. وكان حين وصولي إليه، يبدأ برش العطر على جسده وفي أرجاء الغرفة، ويزودني ببعض منه، فأشكره قائلاً: «يا سيادة المطران، بعد معاشتي لك في هذه الرحلة تبين لي أنك خواجه وشاب آدمي». تأتي هذه الجملة المازحة كسلك كهربائي خفيف يخترق يديه فيرفعهما إلى الأعلى، يضمهما إلى بعض، ويغيب في ضحكة ربانية مجلجلة.

رفقة المطران أكثر من متعة، وأعظم من أن تعدّ فوائدها.

كانت السفينة أشبه بقاعة اجتماعات. ما إن ينفص اجتماع حتى ينعقد آخر. أعضاء الوفود من كل دولة ينسّقون أعمالهم، وغرفة الصحافة كتيبة إعلامية متقدمة، بل هي رادار متطور يتلقى الإشارات، ويرسلها فمفسرٌ على هديها.

كانت أنباء التظاهرات العالمية المواكبة للرحلة قد ملأت «حنيا» السفينة، فانشغلنا بها حتى كدنا ننسى نظراءنا في السفن الأخرى. كان الجمع مقسوماً بين سؤالين: متى نصل؟ هل سنصل؟
أتدخل شارحاً تجربتي الأولى، مؤكداً أننا لا نزال في المياه الدولية، وأن إسرائيل ستخسر إن هي اعترضتنا الآن. سوف تنتظرنا حتى ندخل المياه الإقليمية الفلسطينية، عندها ستجد المبرر «القانوني» لاعتراضنا.

أعترف أن التجربة مع عدو كهذا لا تفضي بالضرورة إلى استنتاج أكيد حول ما ستؤول إليه الأمور. فبالرغم من قراءتي المسبقة لحصول المجزرة وأنا في تركيا، ومما استنتجته من كتاب محمد ابراهيم كامل عن طبيعة إسرائيل العدوانية، ومما استنتجته من «المقالة التي هزت العالم» لستيفن والت وجون ميرشايمر، وبالرغم من معرفتي بتاريخ الحركة الصهيونية وعراققتها بقتل الأسرى. بالرغم من كل ذلك، أعترف أنني «عيشت» نفسي على بعض الآمال بالوصول والدخول إلى غزة..

أعترف، أنني أخطأت في فهم طبيعة إسرائيل مرة أخرى، حين قلت انها لن تعتدي على الأسطول خشية الإحراج الدولي، وأنها كل ما يمكن أن تفعله هو أن تحاصر السفن وتقطرَها إلى ميناء «أشدود»، وهناك وبمعزل عن الإعلام، سيجري إعتقالنا دون سفك دماء، فتصيب عدة عصفير بحجر واحد. وأعترف أنني قبلتُ مجازاً تشبيه أبي الشهداء محمد شكر لقائد الرحلة بولنت يلدريم، «بفاتح الأندلس طارق بن زياد». أعترف أنني نسيت ما كتبتَه في قصتي عن الرحلة الأولى «غزة في مرمى البصر»، حيث كنت أردد قبل الانطلاق: «إن إسرائيل لن تنتظرنا حتى ندخل مياه فلسطين، بل ستعرضنا عند خروجنا من ميناء طرابلس».

أعترف أنني نسيت ما قاله لي «جازماً» ابن عمي سلطان سليمان: «سنستقبلكم على معبر الناقورة أسرى محررين بعد عدة أيام». أعترف أن كُتابنا وباحثينا ونشطاءنا وأنا منهم، بالإذن من نخبة قليلة، ربما، لم يقرأوا ما يكفي عن طبيعة الكيان الصهيوني، فصح فينا قول موشي دايان سنة 1967، «إن العرب لا يقرأون». وأن أطنان الكتب والوثائق عن طبيعة هذا الكيان لا تعادل جملة واحدة قالها رئيس الأركان الإسرائيلي غابي أشكنازي، أمام لجنة «تيركل» الصهيونية التي تولت «التحقيق» السوري بالاعتداء على الأسطول، حيث اعترف أشكنازي بأن الخطأ في عملية الإنزال كان ناشئاً عن عدم قتل عدد كبير من «الإرهابيين» قبل نزول الجنود إلى السفينة، بهدف إرباك النشطاء وشل حركتهم.

* * *

لا تشعر بإبحار السفينة إلا حين تخرجُ إلى الشرفة... ليل داج،
وصوت احتكاك السفينة بماء البحر، كبحة حنجرة يجرحها السعال.
العالم القريب من حولنا يلفه السكون والعممة، موشحٌ بزبد أبيض...
هو الطريق وراء السفينة، فماذا عن الطريق أمامها؟

وفي لحظات متشاقلات، تنزاح «برادي شباك» العالم، لتفتّر عن
أنوار خافتة، تسبح مثقلةً باتجاهنا كأنها تحدد لنا موقعنا في البحر.
ومع الوقت، تتصل هذه الأنوار ببعضها، كعيون هررة تلمع في الظلام.
هل هو الساحل السوري أم اللبناني، أم نحن بمحاذاة قبرص؟ هل
أصبحنا في مرأى البحرية الإسرائيلية ومرماها؟

لقد دخلنا دائرة الضوء يا شباب... فلم نعد لوحدا في البحر، هناك
من يقاسمنا السيطرة عليه. وبسبب من بُعد المسافة، لم نستطع أن نقدر
هل أن السفن تقترب أم تبتعد. ينطفئ لهيب شعورنا حين يُعلمنا القبطانُ
أن السفن الأخرى في «أسطول الحرية» هي التي تقاسمنا السيطرة على
الليل والبحر والرحلة والهدف.

حين أفتقد المطران لساعات كنت أهرع إلى غرفته، وأجلس صامتاً
حتى ينتهي من الصلاة. كنت في الرحلة الأولى إلى غزة مشاركاً في
كلّ صلاة وراءه، وكان يقول لنا: «يكفيني أن تقفوا بجانبني أو ورائي
وأن ترددوا الدعاء».

يعتقد هذا الرجل أنه بقدر ما هو يصلي فإنّ الله يستجيب. وحين
كان يسألني عن إمكانية دخول غزة وأجيبه «سندخل بالتأكيد، ولكن
بدنا نصلي»، كان يهرع إلى طاولته ويحضّر الشموع والنيذ وبعض

كسرات الخبز للمناولة بعد الصلاة. لكن... كيف أستحق المناولة وأنا لم أشترك بها؟

طالما كانت تراودني فكرة. لماذا لا يشارك المطران جموع المسلمين في صلاتهم، وهو الذي يقول ويردد: «الصلاة عند المؤمنين واحدة، وإن بتعابير مختلفة».

وكنت أقول في داخلي: صلاةٌ فوق وصلاةٌ تحت، ألا يمكن توحيد الصلاة في الزمان والمكان فيصبح تضرّعنا أقرب للاستجابة من الله؟ كانت علاقتي بالمطران تتوطد مع كل جلسة أو لقاء، لدرجة أنه كان يرتاح لبعض الممازحات الخفيفة والفكاهات التي ألقياها عليه. هو منفتح ومحاور، فلماذا لا أفاتحه بإمكانية الصلاة المشتركة مع المسلمين، وفيهم رجالٌ دين ورجالٌ تُقى مُحبون له، ولا يفتأون يمجّدون السيد المسيح (ع) ويتلون آياتٍ وسُوراً تتحدث عن السيدة البتول مريم العذراء.

احتراماً وتحسباً، تجنّبت مفاتحته بصلاة يظهر فيها وكأنه يلتحق بالمسلمين ويصلي صلاتهم. كان «الحوار بيننا» حول هذا الأمر يدور صامتاً. كلانا كان يفكر بصوت داخلي.

ولبرهة وجيزة، يلتفت إليّ ويقول بلهجة فلسطينية معهودة: «يا أخي هاني بدي أصلي مع إخواني المسلمين حين يحين الغروب أو موعد العشاء، تعال إليّ لنصعد ونصلي سوياً». لم أبدأ ترحيباً لافتاً... وتعمّدت إعتبار هذه الرغبة من مستحبات الرحلة.

نقلت رغبة المطران إلى أركان السفينة فرحبوا بها، مع تحفظ

خجول، مقرون بالتساؤل: هل يجوز لمسيحي ان يصلي مع المسلمين؟
ليأتي الجواب قاطعاً: نعم، كان الرسول (ﷺ)، يستقبل الناس في
المسجد يسألون عن حاجاتهم، وكان إلى جانبه عدي بن حاتم النصراني.
بدأت جموع المصلين تصطف وتتراصف. توجهت والمطران
إلى المقدمة تحت عدسات الكاميرات المبهرة للنظر. من لم يؤد
الصلاة أخذه الفضول فتحنى لأخذ صورة يعتبرها تاريخية. ينضب
المصلون لدى سماع كلمة «الله أكبر». يقف المطران خاشعاً
صامتاً وعيون المصلين في الصفوف الأولى موزعة بين الابتهاج
لله والإنفات إليه. يحافظ على صمته، حاملاً إنجيله بيديه، قارئاً
مشاركاً بأحد أصغريه.

تنتهي الصلاة ليتقدم «علماني» من وفد الأردن لتقبيل يد
«هيلاريون»، فيعرض أحد زملائه المسلمين الملتزمين في الوفد، مؤكداً
تحفظه على هذه «الخطيئة»، ليتدخل أحد رجال الدين المسلمين قائلاً:
«والله، إن التبرك به حلال، والسلام عليه أجر، وتقبيل يديه الطاهرتين
ليس محرماً».

لقد أنهك المطران بالسلام والأسئلة والاستجابات الصحافية،
حتى كاد ينسى آلام رجليه وندوب جروحه في الصدر، فألفت نظره
إلى وجوب النزول للنوم، فغداً يوم حرج جداً. يستجيب صاغراً لتبدأ
«رحلة العودة» الصعبة بتعرجات الأدراج وانحدارها الشديد، وصولاً
إلى غرفة القبطان الحارة التي «نجوت» من مشاركة المطران فيها بحجة
تجنب ازعاجه، فالسرير في الغرفة بطابقين، وأية حركة مني قد توقظه
وتفسد عليه النوم. أعود إلى سطح السفينة متمنياً له «طيب الإقامة» في

غرفة تُمرض بدل أن تُشفي.

* * *

في هذه الساعة يكتمل اليومان المشبَعان بالحركة والسهر. الرغبة بالنوم كبيرة، ونُواله صعب. الناشطون مأخوذون بساعة الوصول إلى المياه «الموعودة». إنها الثانية عشرة مساءً، وساعة الوصول المفترضة هي الثامنة صباحاً، فلا بأس بالخلود إلى النوم، لأن بعد الثامنة أمراً آخر. من قال إن البحرية الإسرائيلية ستنتظرنا حتى ذلك الوقت؟ لماذا لا نفترض أنها قد «تستقبلنا» في أية لحظة؟ إذاً لا بد من «سَرقة» كم ساعة نوم.... لا لا... إنها ساعات حاسمة، لن أنام ولو نام أهل السفينة جميعاً، وحتى لو ناموا، فالأولى أن أبقى ساهراً. كان حواراً داخلياً يجري «طول الطريق» من محاذاة الماء في الطابق السفلي الخامس حتى محاذاة السماء على ظهر السفينة، لأُفَيّ نفسي أمام عالم مختلف تسوده الجلبة والصخب والحماسة. في كل تلك الجموع لم «أضبط» شخصاً واحداً تراوده نفسه بالنوم، فلن أكون الاستثناء. حلقات ودوائر. مربعات وتجمّعات. خليط من البشر في كلّ زاوية، وكأن العدو قد «أبلغهم» ساعة الهجوم، فراحوا يتحصّرون لملاقاته بطريقة «لائقة».

الأناشيد الدينية تصدح في كل ناحية، تتقاطع مع أغاني قومية ووطنية فلسطينية.

النائب اليمني محمد الحزمي متأبطاً خنجره التقليدي على وسطه، ومعمراً كوفيته اليمنية الشهيرة، بصوته الشجيّ يدير مجموعة من المنشدين تغني وترندح «صلى الله على محمد». فيشقّ صوته قلبي

لتخرج من عينيّ دمة وجد دافئة.

البكاء حالة إنسانية وجدانية تراودني عادة في لحظات الفرح،
وتجتاحني لدى سماع مقرئ مجيد. أنشدت مع الفرقة وأنا أمسح
دموعي، لألتفت إلى ناحية أخرى فأجد «أبا الشهداء» يصدق بأغنية
«بلادي بلادي... لك حبي وفؤادي» ومن ثمّ ليكمل دون توقف مع
أغنية «والله زمان يا سلاحي».

- يا أبو محمد مش حافظ الغنية وبدك تغنيها؟

- دخيلك يا أستاذ أنا عايش في كندا، ومن زمان... ما سمعت
هالغنية ولا غنيتها. سبحان الله كيف «إجت عا بالي». أكتبلي إياها
بدي غنيها للصبح.

أما الشيخ رائد صلاح فكان قد نظم قصيدة من اربعين بيتاً من
وحي المناسبة بعنوان «يا شام» أقتطع بعضاً منها.

يا شام أبشر يا عرين الأسد يا حصن الهمام

أبشر فقد صاح المؤذن بالملايين النيام

يا شام هلاً «عَيْن جالوت» تعود فلا نضام

يا شام فيك الخير كان ولم يزل أنت الهمام

يا شام أنت لعصبة الأحرار صوت الانتقام

هي الساعة الواحدة صباحاً، والأعصاب المشدودة لا تلغي ثقل
الجفون. أتذكر ابني أدهم وأضحك... كان طفلاً في السادسة حين
ذهبت به مع أمه إلى أحد المنتجعات في مدينة «كسب» السورية
المحاذية للحدود التركية. من شدة انبهاره بما حوّلته من مناظر جميلة

كان كذّكر النحل، وكان نهاره حركة متواصلة، لعباً وسباحة، فما تكاد الشمس تستأذن للمغادرة حتى «ينطفئ» الصبي من التعب.

كنت قبل انهياره بلحظات أخوض مع أمه «مناورة» استدراجه للنوم. هو منهك فعلاً لكنه يخشى إفلات لحظة يقظة منه. ومع إلحاحي عليه كان يقفل قبضتيه بعصبية تُدخل أظافره بلحم يده الطري، ويحاول فتح عينيه بغريزة طفولية صائحاً مردداً بصوت عالٍ: مش قادر ناااا... مش قادر ناااا لحظات... ويغرق في بحر النوم، وأقول مبتسماً: «نوم الظالم عبادة».

ما هذه المصادفة، أنا في نفس المكان من البحر ذاته تقريباً؟! حالتني اليوم تشبه حالة ولدي بالأمس، وولدي بالأمس هو أنا اليوم، أنا عاجز عن السهر، ولست بقادر على النوم... وبعد أن أصرخ، «مش قادر نام» تنحل أعصابي وأغور في لجة عميقة، أستفيق بعدها على «هزة أرضية» فألّفي جسمي يتحرك ذات اليمين وذات الشمال، وإذ بجاري الشيخ رائد صلاح واقفٌ فوق رأسي يتسم وقد انتهى لتوّه من إيقاظي من سبات عميق، مريح لي ومزعج للجوار، بسبب الشخير الناشئ عن النوم مُعوجاً بين الحقائق.

«هزة أرضية» في البحر... نعم. ربما هي إرهاصة لهزة بحرية بعد ساعة تماماً ستغلي بها الدماء في العروق، وتختلط سواقيها ببعضها، محدثةً بحيرات حمراء متصلة، وجداول متسرّبة من سطح السفينة إلى عمق البحر المتوسط، فتحوّل «بياضه» إلى لون يشبه لون غضب الله على القوم الظالمين.

تجمّع المصلون وتراصفوا لصلاة الفجر، كانوا يَنشدون نورَ الله،

وإذا بأنوار شيطانية تتقدم. من عادة الشياطين أن تحضر بسرعة، لكن «أنوارهم» كانت تتقدم ببطء شديد. لم يعد من مجال للتأويل. لقد أتوا «لاستقبالنا» ومن واجبنا «ملاقاتهم». وبين السجود والوقوف، كان المصلُّون يسبقون الوقت. وأقول في نفسي، هل يجوز ترك الصلاة والتحرك؟ لأجيب: «كم من الخلفاء والأئمة والمؤمنين قضوا أثناء الصلاة».

من لم يؤدِّ الصلاة توجّه إلى موقع يتدبّر أمره فيه، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

الحمد لله على نعمته، فقد انتهت الصلاة قبل حصول المقدّر.

* * *

إنها الساعة الثانية صباحاً. يتقدم «طارق بن زياد» التركي ويمسك بالمذيع معلناً المرحلة الأولى من المواجهة: لقد اتصلت البحرية الاسرائيلية بقبطان السفينة واستعلمت عن هويتها ومهمتها، وانصرفت. يتوقف الإنشاد والغناء في الجانب الآخر من السفينة ويلتف الجمع حول «طارق» مستفسراً عن معنى هذا التدبير.

هي التجربة الثانية عندي، وهي الأولى عند رفقائي، ما عدا قلة منهم شاركت في رحلات سابقة، فهم يحتاجون فيها لمعرفة كل شيء، فيأخذهم الفضول إلى اقتراح خطوات «مرّ عليها الزمن» بعد أن انصرف العدو من دائرة الإتصال والتأثير.

هل انصرفوا فعلاً؟ ألم يطلبوا من القبطان أن يعودَ من حيث أتى؟ ألم يهددوه بإغراق السفينة إن لم يمثل كما فعلوا معنا في السابق؟ لماذا لم يواكبونا ولم يقتربوا لمئات الأمتار كما في السابق، لماذا لم يسلطوا الأنوار الكاشفة علينا، فبيهروا عيوننا ويُعموا أبصارنا؟

لم يستغرق إستحضار التجربة وإعادة شريط الذاكرة سوى لحظات، حتى أُلقيَ نفسي في الأجواء والمناخات السابقة، المواكبة للأغاني والأناشيد، وكأنها - وكانت كذلك بالفعل - قد جاءت باعتبارها الردّ النفسي على هذا التحدي. ويتحلق جمع من الناس حولي وقد قرأ بعضهم «قصة» الرحلة الأولى والمواجهة التي جرت فيها، ليقولوا ماذا بعد...؟

لا يزال «الخطأ المميت» الغافل عن التجربة السابقة يغلف ذهني الشارد، «فأبلغهم» ان المواجهة مؤجلة لساعات، ستكون المعركة صباحية لحظة دخولنا إلى المياه الإقليمية الفلسطينية.

لدى البحث في كيفية المواجهة، كانت قيادة الرحلة تؤكد علينا ضرورة الالتزام بالتنظيم ورباطة الجأش وعدم التسرع، وكانت تردد أن مهمتنا مهمة سلمية.

عشرات من الشباب الأتراك زُتروا سطح الباخرة بأجسادهم، يبعد واحد منهم عن الآخر ثلاثة أمتار، ومن الاتجاهات الأربعة، أصبحت الباخرة «بالحفظ والصون». أما في الطوابق الأخرى فكانت خراطيم المياه تعمل بكل اتجاه لمنع سفن العدو من الاقتراب، ومنع الجنود من التسلق على السفينة. تقترب بارجة حربية كبرى، قيل إنها لم تستخدم منذ حرب تشرين الأول / اكتوبر/ 1973، فتخرجُ من بطنها كفتران المطبخ، عشرات الطرادات المطاطية، يحمل كل واحد منها عشرة إلى خمسة عشر رجلاً وإمرأة، تنطلق في غير اتجاه، لتطويق السفينة من كل جانب. صمّت مطبقٌ وحبسُ أنفاس لا يوصف. هدوء مدرّوس، والالتزام بالتعليمات جرى تأكيده طوال الرحلة. كلٌ في مكانه لا يبرحه مهما استدعت الحاجة. تقاطع نظراتٍ في كل اتجاه كأنها سيوف تلمع. سُترات النجاة الصُفر التي تدرّبنا على استعمالها مع صافراتها عند طلب النجدة في الماء، وحثّ الجموع مظهرًا وروحاً وزادت التماهي بينهم، بحيث لا تُميّز شخصاً عن آخرٍ إلا من وجهه. زمام المبادرة ليس بأيدينا، باستثناء خراطيم المياه التي فتحت «نيرانها» على المهاجمين قبل استقبال النار.

كان وصول الطائرات المروحية إيداناً بفتح النار.

وفي الرابعة من فجر يوم الإثنين الواقع في الأول من حزيران / يوليو / 2010 انفتحت فوهات الجحيم على أناس «قرروا أن يلاقوا ربهم»، متحدّين آلة القتل الإسرائيلية.

أشهد أن إطلاق النار لم يكن عشوائياً، لدرجة أن العدو لم يخسر طلقة واحدة خائبة. ولكي أكون «منصفاً»، أشهد أن القنابل الدخانية الكثيرة والكثيفة لم تقتل أحداً، ولم تجرح إلا من أصابته تلك القنابل مباشرة.

ترافق إطلاق النار هذا، مع الإنزال قرب صارية السفينة. طائرة تحمي طائرة، حبال تتدلى، ورجال مزودون ببنادقٍ وخوذاتٍ حديدية وأقنعة سوداء تخفي الوجوه لدرجة أنك لا تميّز الرجل من المرأة. مُقابل اللون الإسرائيلي الواحد، كانت السفينة «قلعة مدججة بالتنوع»، وكانت الألوان المتعددة تغطي بمساحتها ومضمونها على ساحة المعركة. رجال ونساء من كل اتجاهات الرياح. مسلمون ومسيحيون ويهود، يصاب بعضهم فرادى فينزفون مجتمعين. قبالة البنادق أفئدة لا يخترقها الرصاص، وبمواجهة الأقنعة السوداء وجوه ناضحة مشرقة. ومقابل الهمهمات المبهمات أصواتٌ واضحة مفهومة المعنى.

لا يمكن تصوّر معركة حربية على ظهر سفينة أو في باطنها، إلا وتتخللها أصوات أو صراخ أو استغاثات. لم يستغث جريح، ولم يتأوه مصاب ولم يرتعد ناشط. وأشهد أنني لم أسمع سوى كلمة «الله أكبر»،

تخرج من فم مصاب أو مدافع أو متحرّك على ظهر السفينة. كأنما صيحة «الله أكبر» كانت كلمة السر المعتمدة للتعامل في ما بين الناس. كنت في الطابق العلوي من السفينة، على بعد عشرات الأمتار من صاريها حيث الإنزال. لم تُعهد إليّ أية مهمة «عسكرية» تتعدى صفتي كمشارك مدني، وحسب علمي، لم تُعهد لأي ناشط آخر أية مهمة سوى الدفاع السلمي عن مهمة الإبحار لكسر الحصار.

قال قائد الأسطول «بولند» للعرب المشاركين: «لقد شاغلتم إسرائيل عشرات السنين، فتركوا لنا شرف هذه المهمة في هذه الرحلة». من طبيعتي الفضولية... أتحرّك صوب موقع الإنزال لأرى جنوداً نزعتم منهم بنادقهم وكُبلوا بحبال رفيعة، ورُكنا في عتبة الدرج الفاصل بين الطابق العلوي والطابق الذي تحته. ولقد ترك المدافعون هؤلاء الأسرى لخبيتهم، وتفرغوا لأسر جنود آخرين كانوا يتحضرون للإنزال. أعود أدراجي لأحمد الله أن الناشطين، وكانوا «كثرة على قلة»، لم يتعرّضوا للأسرى بعنف يتجاوز مهمة الدفاع عن النفس، فلا قتل ولا تعذيب. وفي يقيني أنه لولا الحلم ورباطة الجأش والتنظيم المدروس، لاستغلّت إسرائيل الحدث أيما استغلال، لتقول للعالم أجمع: هاكم النشطاء «المسالمون» يعتدون على حياة الأسرى. وأزيد في القول: لو وُجدَ على ظهر السفينة مسدس واحد، لجعلت إسرائيل من نفسها «ضحية الإرهاب العالمي»، الذي واجهته بالبوارج والزوارق والطائرات. ولاني كنت من أوائل المصابين، فقد وضعتني الإصابة خارج المعركة باكراً، ففاتتني تفاصيل كثيرة عن الإنزال والمواجهة، ورحت

أسأل من التقيتهم بعد العودة عن هذه التفاصيل، لأكون لنفسي ولقارئى الكريم صورة شبه واضحة عن هذه الواقعة.

لدى زيارتي تركيا للاحتفال بعودة «مافي مرمرة» التقيت بصديق عزيز تعرفت عليه على متن الباخرة، السيد الجليل سالم الفلاحات من قيادات العمل الإسلامي في الأردن، وكان لتوه قد نشر كتاباً عن هذه الرحلة أهداني إياه، بعنوان «أسطول الحرية: ذكريات خواطر - أحداث». لقد استأذنته فوافق مشكوراً، فاقتطعت وصفاً لما تضمنته قصته عن عملية الإنزال.

ولقد سررت كثيراً من تطابق الوصفين لمجريات الأحداث بيني وبينه. يقول السيد سالم الفلاحات ص 69:

«وذَكَرَ لي من أثق بقوله وهم عشرات تَبْلُغ رواياتهم حد التواتر، أن الطائرة الأولى لما أُلقت الحبل وتدلّى منها، آخذة الأتراك ودفعوه بجرأة نحو الماء، وكان حاج إبراهيم بلغن الشهيد، هو من قام بذلك، مما أجبر الطائرة على المناورة من جديد، ولو أرادوا قتل هؤلاء الجنود لفعلوا، ولكنها أخلاق الإسلام وحكمة التقدير، بل قام الأطباء بمداواة جروحهم ثم تركوهم آمنين، ولقد قام الشهيد حاج فخري يلدز من مدينة «آدياما» وهو كردي من سرت، ومعه آخر بربط حبل الطائرة بالباخرة محاولين إسقاطها، لكن مسؤولهم حذرهم خوفاً من وقوع الطائرة عليهم وعلى إخوانهم، فقاموا بفك الحبل، ولما ذاقوا طعم الهزيمة قررت قيادتهم العليا استخدام الرصاص الحي، وكل أنواع البطش ثاراً لهزيمتهم، وحفاظاً على معنويات جنودهم. وهنا كانت المذبحة، فقبل الإنزال الثاني من الطائرات والقوارب العسكرية التي ملأت البحر وزادت

عن عشرين قارباً، وأبعد منها قليلاً بوارج حربية، أُطلق الرصاص على من كان على ظهر الباخرة وهم أتراك، وعلى كل من تيسر للقناصة صيده في الأدوار الأخرى من غير الأتراك كذلك».

أنا من جهتي «أعترف» أن السلاح الوحيد الذي كان على متن السفينة هو ذلك الخنجر الذي «يزين» خصر النائب اليمني محمد الحزمي، والذي يعتبر في اليمن زياً تقليدياً يؤاخي الإنسان منذ طفولته حتى مماته. وبالرغم من ترددي سابقاً إلى «اليمن السعيد»، الحزين هذه الأيام، فإن الفضول لم يأخذني للسؤال عما إذا كان الخنجر يدفن مع صاحبه باعتباره جزءاً منه.

اعتقدت للوهلة الأولى أن المعركة تدور في ناحية واحدة من السفينة هي حيث أنا. وخلصتُ أن هذه الناحية هي ساحة المعركة الوحيدة. لقد كان انشغالي مصوباً عليها، إلى أن رأيت أربعة أشخاص مُسرعين يحملون جريحاً من الناحية الأخرى... إذاً فالهجوم شامل. الجريح مصاب في صدره ومكان الإصابة موشوم بالأسود. هذا يعني أن الإصابة هي من مسافة قريبة، وشهب النار قد أحرقت صدر الجريح، فهم أصبحوا إذاً على ظهر السفينة يقاسموننا السيطرة عليها.

يسرع المسعفون لنجدة الجريح الذي يصرخ «لا إله إلا الله». هو يحتاج لكميات كبيرة من الدم لتعويض ما نزف. يَقْلِبُونَ الجريح على بطنه، فإذا بفتحة كبيرة في ظهره كنبع يتفجّر بين وديان، وليس باليد حيلة. لم تخفِ حماسة الناشطين ولهفتهم تجاهه، شعوراً خائباً لديهم بأن ما يقومون به لا ينقذ جريحاً بمثل هذه الإصابة.

لم تراوذي رغبة في التحرك، ولم أتقدم نحوه لشعوري باليأس من

عدم امكانية المساعدة، فأعود ثانية إلى الأمام حيث الإنزال والمقاومة، لأكون جزءاً من أجساد تلتحم بالأجساد. وإذا بالمهاجمين يفرون تحت ضربات المدافعين، وإذا بالهمهمات المبهمات تصير صراخاً حين يُلقى بأحدهم في اليم. وإذا بالسلاسل الحديدية تطوّق رقاب الجنود، وبالعصيّ تقارع البنادق، فلم أستطع التمييز بين الدم الصديق والدم العدو، وإذا بالنائبة العربية في الكنيست، حنين الزعبي، «قلعة متحركة» تحمل مذياعاً، وتصرخ بالجنود: «أوقفوا النار، معركتكم خاسرة».

لما أدركوا أننا انتصرنا... وأنهم خسروا رغم قوتهم الغاشمة، لجأوا إلى المزيد من القتل، لأن عكس ذلك سيشكل «المذلة الأبدية» للجنود وللكيان. كان المزيد من القتل «خيارهم الطبيعي». فبين «المذلة الأبدية» لجنود مدججين بأسورين من قِبَل عزّل معزولين، وبين الإدانة التاريخية... فقد اختاروا الثانية، التي في اعتقادهم أنها ستُحمي في أروقة الأمم المتحدة ومن ثم «ستُحمي» من ضمير البشرية. صار النشطاء يتساقطون كأغصان شجر طري أخضر، تنكسر وتبقى «ممسكة» بالشجرة، علّ الزمن يحييها من جديد.

لقد ضاقت ساحة المعركة «بالجيوش»، فتعدّرت على المتحاربين إمكانية الحركة أو الاستدارة أو التقدم أو التراجع. وبالرغم من ذلك... تشقّ الفضائيات طريقها إلى دائرة الصراع الضيقة المحيطة بصاري السفينة حيث الإنزال. لم تكن الفضائيات لتَهتمّ بصور الشهداء والضحايا، / فلهم حقهم اللاحق بالتغطية والتصوير، بل كان همُّها أن لا تفوتها تفاصيل جريمة باردة سيذكرها التاريخ.

على الرغم من التشويش على الاتصالات، لم يدرِ العدو أن الآت

التصوير المركزة على أرجاء السفينة وأنحائها كانت تنقل إلى العالم أدق التفاصيل عن جريمة لا يَنْكَرُ فِعْلُهَا على أصحابها، وحين تنبّهوا لها، وبدأوا بتعطيلها ونزعها من أمكتتها، كانت «فأسهم قد وقعت في رأسهم» كما يقول المثل.

لقد قتلهم الإعلام والتكنولوجيا والفضائيات التي يعتبرون أنفسهم أفضل من يَصْنَعُهَا ويستخدمها.

كان العدو ضنيناً وبخيلاً بإطلاق الرصاص، لم يجازف برصاصة أخرى إلا بعد تأكده بان هدفه قد جُرح ولم يستشهد. بدليل أن عدداً من الشهداء قد أصيب برصاصتين أو أكثر. وقد روى لي من التقيتهم على «مافي مرمر» في اسطنبول أن ناشطاً تركياً استشهد بست رصاصات.

ويستمر «إنجاز المهمة». رصاصة أولى قاتلة من جندي على الباخرة على ناشط فترديه، ورصاصة أخرى من الطائرة المحلقة فوقنا تجرح آخرَ بقربي، وحين أهمُّ لنجدته وسحبه إلى داخل الباخرة، تصطادني رصاصة في الرجل اليسرى فوق الركبة، أحس بها كلسعة دبور، ورصاصة ثانية تخترق الرجل اليمنى فوق الركبة أيضاً، فأحسُّ بوزنها أثقل من وزن جسمي، وبسبب من اختلاف الثقل بين الرجلين، يختل توازني فأقع أرضاً وأنا ألقى بجسمي داخل أحد أبواب السفينة طلباً للنجاة.

لقد رأيتهم بأم العين، جنودُ الطائرة «يقتلونني». رصاصتان صائبتان، وثلاثة خائبة تثقب برمياً بلاستيكياً مملوءاً ماءً بقربي.

سال الدم قبل الماء، وسال ماء البرميل محاذياً لدمي. لم يختلطاً،
فبقيت كل مادة محافظةً على خصائصها.

عادت «مافي مرمرة» إلى تركيا، بعد ان غُسلت السفينة لإخفاء
الجريمة.

الماء يمحو الدم، لكنه لا يلغيه.

* * *

باطن السفينة ليس كسطحها، صار سطحها ساحة تصدير للجرحي
والشهداء، وأما باطنها فتحول لساحة لجثث الشهداء وغرفاً للعناية
والإسعاف.

الأطباء والمسعفون الأتراك، «النائمون» طوال الرحلة، «أيقظهم
جرس الإنذار» فهرَّعوا إلى عملهم. خلال نصف ساعة نفذت الضمادات
والأربطة والشاش المعقم.

كان «حظي» كبيراً، ولأنني كنت من أوائل المصابين، فقد حظيتُ
بما يكفي من الضمادات، لكن التزيف الحاد استدعى المزيد منها، بفعل
عدوي الاحتياطي المقيم في محفظتي، والمتمثل بالأدوية المسيلة للدم،
والذي يرافقني على الدوام بحمد الله الذي لا يحمد على مكروه سواه.
كان الجزء الأسفل من جسمي أحمرَ قانياً، وخسارة الدم جعلت
الجزء الأعلى أصفرَ شاحباً.

يأتي الطبيب الجزائري المشارك في الرحلة محمد البوزيدي
فيقول: «ضغطك منخفض قليلاً»، فأجيبه بزهو... «لكن معنوياتي عالية».
الناس من حولي يصلون على الموتى. أين أبو الشهداء، أين نبيل؟

أين المطران؟ أطلب من أحد الناجين النزول إلى أسفل السفينة ليطمئن عليه، وما إن يهَمَّ بالحركة حتى تنزوع برأسه عدة بنادق... لا تتحرك. لقد «حظي» الأطباء بحرية نسبية للحركة، فرجوت أحدهم تفقد المطران ليعود بعد دقائق بالخبر السار: إنه حيّ، لقد تحدّث إليه.

كان المطران «نزيل» شرف على لائحة من عشرين ناشطاً وُضعت أسماءهم على قائمة القتل خلال العملية. وبالطبع كان الشيخ رائد صلاح على رأس هذه القائمة، وخلال المعركة جرى انتزاع هذه «الوثيقة العبرية» من أحد الجنود حين كان يهَمّ بقراءتها.

رُوي لي في ما بعد، أنه بإنزال الأسرى من ميناء «أشدود» كان رئيس الأركان الصهيوني غابي اشكنازي حاضراً يحمل صورة رائد صلاح ويبتظره على رصيف الميناء، فما إن ينزل هذا الأخير من السفينة، ويتأكد أشكنازي من شخصيته، حتى يضرب قبّعة العسكرية بيده، متمماً منفِعلاً وينصرف. لقد استشهد تركي شبيه برائد صلاح وجاء اشكنازي ليتأكد من استشهاد الشيخ رائد، فكانت خيبته أشبه بخيبة حرب تموز. أكّرر السؤال عن أبي الشهداء فيروي لي نبيل الحلاق أنه رأى أبا الشهداء يرفع رأس شهيد بين يديه وهو ينتحب قائلاً: «الله يرحمك يا هاني»، فيتقدم نبيل بدوره ليرفع «رأسي» متفحصاً، فيصرخ بأبي الشهداء «لا يا أبو محمد هذا ليس الدكتور هاني»، ومن ثم يعودان مطمئنين ليجداني مبتسماً مردداً: «الحمد لله... الحمد لله».

يسرق نبيل نفسه مصطحباً هيلاريون لتفقدتي، فيصرُّ الأخير على الصلاة على الشهداء تحت أسنة الحراب.

بوصول أبي محمد ونبيل، بدأ الدم اللزج «يتمرغ» في مسام جسمي، ولا بد من نزع البنطال ليعطيني أبو محمد من حقيقته بنظراً لا يوقف نزيفاً بقدر ما يستر عورة، فأجدها مناسبة لإقفال مسرب الدم بأصابعي من جانبي الرجل اليسرى، وليتولى نبيلُ بأصابعه إقفال المسرب من جانبي الرجل اليمنى فوق الركبة.

أتحسس جسمي بوصة بوصة فأحمد الله مجدداً. أحاول تحريك أصابع الرجل اليسرى فتستجيب جزئياً، وأنادي أصابع الرجل اليمنى، فتبدو صماءً فأقول لنبيل: «لقد ضُرب العصب».

هل تتصوّر يا أخي أن رجلاً يحمل كيس المصل لساعة كاملة دون حراك أو وجل، قبل أن يؤتى بالعمود الذي علق عليه الكيس؟ نعم، هو صلاح الدين ابن منطقة ديار بكر التركية. هذا المسعف والطباخ والخادم وموزع الأكل و الحاضر والمدافع والمتفاني في كل لحظة. إن له عليّ ديناً كبيراً أمل أن أرده أضعافاً، شكراً وامتناناً.

* * *

سكون ما بعده سكون. لم يستسلم الناشطون، بل رموا «أسلحتهم» معلنين وقف القتال من طرف واحد، ضناً بالمزيد من أرواح الشهداء والجرحى.

هي هدنة حرب يخرقها العدو، فيبدأ المرحلة الثانية من الهجوم. أعداد غفيرة من الجنود تجمّعت على سطح السفينة، سُمع وَقَع أقدامهم مدّوياً، بدأت بالتقدم بصورة منظمة مدروسة. خائفة وحادرة، تحتل زوايا الباخرة، ممهدةً لاجتياحها بأصوات جماعية عالية، تتقدمها الكلاب وأدوات التفتيش، ترصد كل طرفة عين فتصوبُ نحوها السلاح.

ما إن يتحرك شخص حتى تنهال عليه الممنوعات والأوامر. والعيون تقاوم البنادق المزودة بالحرايب. لبنى مصاروة الفتاة المقدسية الناشطة في حركة غزة حرّة تتكلم عبر مكبر الصوت إلى الجنود باللغة العبرية وتطلب منهم ألا يطلقوا النار مجدداً كما تطلبهم بنقل الجرحى بالسرعة القصوى لأن بعضهم حالتهم خطيرة.

هي ساعة لا أكثر، يتمركز الجنود في أمكتهم، ليأتي دور الكلاب البوليسية التي ما وفرت إرهاباً إلا ومارسته. حتى كلابهم كانت صهيونية بامتياز. لقد تحرشت الكلاب بكل شيء، ولم يسلم منها حتى ذلك العمود الحامل لكيس المصل الذي يغذي جسمي.

بدأت الجراح تبرد، والألام «تتركز» الندوب، لقد ارتويت من ماء المصل المضخوخ في شراييني، حتى أحسست بمبولتي كبالون يكاد ينفجر، فاستدعني الطبيعة وشعرت بالحرّج. كيف أصل إلى دورة المياه وأنا بحال من النزف والعجز عن الوقوف؟ أترك نفسي لنفسي فأتلبلّ وينتهي الأمر؟ أم أدعو نفسي للوقوف على رجلي المصابتين كجزء من مقاومة العدوان؟

لا لن أستجدي، لن أخاطبهم أو أتحدث إليهم... يأتي المسعف التركي بكرسي بلاستيكي ليقاسم نبيلاً وزر حملي، وفوق رؤوسنا البنادق والحرايب.

لقد دخلوا معنا ببنادقهم وحرايبهم إلى الحمام، فتعسّر التبول... وددت لو أبول على بنادقهم.

بعد سيطرته على السفينة بدأ العدو بإحصاء «غلة اليوم» من القتلى

والجرحى. قسّم ركاب السفينة إلى ثلاث مجموعات، فترك الشهداء في أمكنتهم، وبدأ بنقل الناجين من المجزرة إلى أعلى السفينة مكبلين ومعصوبي الأعين. أما الجرحى، ونتيجة المفاوضات مع حنين الزعبي والأطباء الأتراك، فقد جرى نقلهم بالأفضلية إلى المروحية حسب درجة إصابتهم. كنت أراقب عملية النقل واحداً بعد الآخر حتى جاء دوري، فعملية نقل الجريح كانت تستغرق حوالي عشرين دقيقة.

من الساعة الخامسة وخمس دقائق صباحاً، حتى الثانية عشرة ظهراً. من الرصاصتين الصائبتين والثالثة الخائبة، حتى وصولي إلى تحت المروحية، مرت أربع مائة وخمس وعشرون دقيقة، كل دقيقة منها، فيها عبرة ودرس.

مُلقي على مقعد، على ظهرك، تتقلّب ذات اليمين وذات الشمال، تتفقدُ جراحك باللمس، وتفقد جرحاك بالنظر. تحاول أن تعود الجرحى فتعوقك الحركة. وتودّ زيارة «اضرحة» الشهداء فتصيحُ البنادق فوق رأسك... لا تتحرك.

وأنا أكتب هذه السطور ساءلت نفسي، لماذا لم أبك الشهداء على السفينة حتى في سري؟ فجاء الجواب مبرّراً برفض الاعتراف بموتهم... فقد حدثتْ بعضُهم قبل المجزرة... وبإستشهادهم، انتهت المحادثة الأولى، لكن الحوار بالروح والذاكرة والضمير معهم طويل... وللبحث صلة.

كيف أبكي؟... ففي المناخات المشحونة عاطفياً، تُقفلُ الإنفعالاتُ الظاهرةُ منافذَ العواطف الدفينة فلا يتسرب الدمع.

يتقدم مني ثمانية جنود هم أشبه «بالروبوتات». وبدون أية كلمة منهم، أُلقي نفسي على حمالة، وينطلقون... يسرون بين مقاعد المقصورة ثلاثين متراً، لِيُسَلَّموني إلى ثمانية آخرين ينتظرون في الطبقة العليا من السفينة.

تتعر عملية رفع «الجثمان» لتدخل جنديان إضافيان. ومن نقطة التسليم هذه، ينطلق ثمانية آخرون إلى آخر السفينة، تحت الطائرة المروحية المحلقة «الثابتة» في الهواء.

كان سطح السفينة «نظيفاً» من كل شيء يتحرك، فقد تعهدت المراوح بدورانها الهائل بتطير كل شيء غير ثابت أو مثبت بالسفينة. كان صوت المروحية كافياً ليصم الأذان وكفياً بتهريب هذه الأشياء، فما لم يهرب من الصوت تكفلت به المراوح.

يكفي أن تمر مروحية من فوقك لثانية واحدة حتى يقشع البدن، فكيف إذا كانت «نوبتك» تحت الطائرة ربع ساعة على الأقل «انتظاراً لدورك»، فتتحول إلى قطعة من الثلج. ملقى على الأرض فوق حمالة، مربوط اليدين والرّجلين النازفتين؟

رب ضارة نافعة، لقد اطمأنّ قلبي إلى أن البرد سيوقف سيلان الدم، لكن قلبي المطمئن هذا، كاد يتوقف من شدة هواء المروحية في وجهي، لدرجة الاختناق.

خلال الدقائق الأولى من وجودي تحت الطائرة أصبحت «كرجل الثلج» الملقى على ظهره لا تتحرك فيه إلا العيون. يكتمل ربع الساعة، وإذا برجل يتدلى من المروحية، مزترأً بالحبال والأسلاك الحديدية،

«يحط» على جسدي ويشبك الأسلاك المتدلّية بالحمالة الحديدية من ناحيتها، «فيحضنني» وترفعنا الطائرة، لأنظر إلى تحت وأنا في الهواء، فأرى جموع الناشطين المكبلة أيديهم خلف ظهورهم، فأرفع لهم شارة النصر هاتفاً: انتصرنا... هزمناهم. ليحيني الأول «الله أكبر» والثاني «تسقط إسرائيل» والثالث «عاشت فلسطين» والرابع «حماك الله» والخامس... والسادس...

كانت الأسلاك الحديدية تشدني إلى فوق، حيث قلب الطائرة، وكانت الأوتار الصوتية وأصداؤها تشدني إلى تحت، حيث قلوب الناشطين، فالنزاع بين الاتجاهين على النقالة الحديدية التي تحملني غيراً وجهة سيرها، فبدل أن تدخل النقالة إلى قلب الطائرة بالطول، فقد «عَوْرَضْتُ» أمام بابها.

وككل حالة صراع مؤقتة تنتصر فيها المادة على الروح، فقد هيمن صوت الطائرة على أصوات الناشطين، ونجح الجنود المنتظرون في الطائرة في تغيير وجهة سير النقالة الحديدية لألْفِي نفسي في «براد» كبير في الداخل. ما إن يصل الجريح بحمالة الحديدية حتى يجري شبكها وتعليقها بجدار الطائرة. حمالة فوق أخرى، كجارور فوق جارور. كان نصيبي في الجارور السفلي «للبراد».

لفترة وجيزة خلت نفسي في جبانة مسيحية، نعوشها موضبة فوق بعض. أن تختار بين البراد أو الجبانة، كان دور مروحية الطائرة حاسماً في «الخيار» الأول. من السفينة إلى الطائرة، عشرين جريحاً كنا في «براد» واحد. وبالنظر إلى عدد الجرحى الكبير على ظهر السفينة، اعتقد أن براداً إضافياً «سيحلّق» بعدنا في الأجواء.

راحت الطائرة توزّع هواءها «بالعدل والقسطاس» على الجرحى، فقلت لنفسي: «في «سفينة الأخوة» اكتشفتُ مياه فلسطين، وعلى ترابها اعتقلتُ ليوم كامل، وها أنذا اليوم أحلق في أجوائها، ولم يعد ينقصني بعدُ أيُّ عنصر من «مقومات المواطنة الفلسطينية»، فأردد أغنية طالما ترددتُ على مسامعنا في سبعينيات القرن الماضي «فلسطيني الهوى قلبي».

ومن مروحية مفتوحة في سماء فلسطين في ظهيرة صافية، رحت أجيل النظرَ ما استطعت في الجبال والمدن والشوارع، فلم أجد ما يفرق بينها وبين شقيقاتها من المدن العربية. بنايات شاهقات متشابهات، ومظاهرٌ حدائِة غريبة في البناء والعمران، فأتألم وأشفق على أولئك الذين لا يزالون يحتفظون بمفاتيح بيوتهم. هل سيعرفونها إذا عادوا؟ / هذا إذا عادوا/ هذا إذا بقيت تلك البيوت.

لا ألم في جسدي. فوجودي في «البراد» جعل مني قطعة واحدة، تعطل معها دور الأعصاب الناقل للشعور بالإحساس، أما الألم النفسي فمحفوظ لفترة، مغلفاً بفرحة الظفر بالحياة.

نصف ساعة من الطيران وأنا مثقل بهمين: همَّ مصير الأسرى في سفينة «مافي مرمة» بعد أن «مررتني» رؤية بعضهم مكبلين معصوبي الأعين... وهمَّ كيفية «إستقبالنا» على الأرض.

لم أفهم كيف فرقوا بين أسير وأسير على السفينة، وكيف عصبوا أعين بعضهم وتركوا عيون الآخرين طليقة. لم أستطع تفسير ذلك إلا بعد أن عرّفت ان الذين عُصبوا كانوا من «المشاغبين» على جنود الاحتلال، أما الآخرون «فلحكمة» عند العدو تقول: يجب أن نترك بعضهم يرى

ما يجري، ليروي ما رأى... عبرةً للآخرين.
هي رحلة طويلة طول يوم «كانوني» بلا كانون. أتذكرُ أنني نسيْتُ
جراحي خلالها. وما إن بدأت الطائرة بالهبوط حتى شعرت بتحسِنِ
في المزاج، سببه شعوري بأني سأخرج من البراد.

* * *

تحطّ الطائرة في فناء مجمع عسكري كبير تطوّقها سيارات إسعاف عديدة، ما أن تنطلق إحداها حتى تبدأ بالصراخ ككلاب مسعورة تستقبل ضيفاً غريباً، لتلج مدخلاً تجمّع فيه رهط كبير من الأطباء، إنه مشفى مستعمرة «بتاح تكفا».

وكلمة «بتاح تكفا» العبرية هذه، معناها «الأمل» بالعربية، وهي أول مستعمرة أنشأها المستوطنون اليهود سنة 1878، بعد أن اشتروا مساحات شاسعة من أراضيها، لكن السلطان العثماني آنذاك رفض تسجيل الأرض باسمهم. اليوم يعيد التاريخ نفسه، بأن يرفض «السلطان العثماني» تسجيل الأرض بأسمائهم. وما إن حلّت نكبة 1948 حتى وجد الفلسطينيون فيها أنفسهم عرضة للتهجير. غير اليهود إسمها من قرية «الميسرة» إلى اسم «بتاح تكفا» بعد أن هجروا أهلها منها. ولم ينبج أهالي البلدة من عمليات القتل، فقد قتل اليهود منهم «ما ملكت أيمانهم».

حين علمت ما حلّ ببلدة «الميسرة» تذكّرت ما قرأت عن سائر مدن فلسطين، وكيف ان عمليات الاستيطان كانت تُنفذ وفق خطة مدروسة تقوم على مصادرة الأراضي والقتل والتهجير وتغيير المعالم كافة. وتذكرت ما رواه لي السيد أحمد يحيى وهو مناضل من بلدة كفر كلا اللبنانية شهد مرحلة النكبة والاستيطان، كيف جاء جيش «الهاغانا» إلى البلدة بحاملات الجند، «يُغني» أغنية يذكرها أهالي البلدة تقول:

نحننا جيش الهاغانا ويلو أَللي بُيتحدّانا
شَتينا بِفَلَسْطينَ وحنصيف بلبنانا

يتذكر المناضل أحمد يحيى ويقول بمرارة: «نعم كانوا يغنون بالعربية»، ويضيف هازئاً: «أن بعض اللبنانيين والعرب يومها ردوا لهم التحية بأحسن منها وتفوقوا عليهم، فصاروا يغنون بالعربية، أليست ميزات اللبناني هي امتلاكه لأكثر من لغة!

* * *

الفوضى العارمة تعم المكان، جرحى بالعشرات على الأسرة والأرض. كان الأطباء والمرضون باردين ببرودة جسمي في الطائرة. الجرحى ليسوا جرحاهم، ولا يمتون إليهم بصلة أو علاقة، سوى علاقة قادتهم القتلة بالمقتول، أو الجراح بالجريح، أو الجلاد بالضحية. لغة عبرية غير مفهومة. أما الأطباء والمرضون العرب بينهم فكانوا أقلية. بان ذلك من حجم تداولهم في ما بينهم بالعربية. يتقدم اثنان ليكشفوا على جراحي وينصرفان، فأصبح وحيداً في زاويتي، لألمح من مسافة رجلاً يقترب مبتسماً كأنه «يأمرني» بالاطمئنان فأستجيب... ويقول: «الحمد لله على السلامة».

إنه عربي، ومن واجبي أن أرد التحية، وقبل أن أجيب يمطرنى بزخات من التهئة والمديح: «لقد رفعتم رأس أمتنا، ولكم دين في أعناقنا، نحن نعز بكم». ويردف قائلاً دون خشية من الأعين والرقابة: «أنا بخدمتك...سلني واطلب ما تشاء».

لكم بلسمت هذه الكلمات جراحي، وأعطتني شحنة من الحرارة أذابت الجليد المتراكم في جسمي، فانتظم تنفسي، وسكن قلبي. ثم قلت له: «يا أخي أرجوك أن تتفقد الأخوة الأتراك فهذا يرفع من معنوياتهم، ويمدّهم بالمزيد من الصبر والمقاومة».

ولم أكن لأتصوّر أن «يطوف حظي» لدرجة الحديث مع أهلي في لبنان.

حين كنت في الطائرة، ذهب بي التفكير إلى عائلتي وكلّ من يعرفني؟ و كان همّي أن أخفف قلقهم وأبلغهم اني لا أزال حياً. لم أكن أعلم أن جميع الأهل والأصدقاء والمعارف قد رأوا صُوري على الفضائيات، واطمأنوا إلى أنني لست في عداد الشهداء.

بعد عودة الطبيب من جولته على الجرحى الأتراك، جاء يلح عليّ مجدداً: «أنا بخدمتك... اطلب ما تريد». لم أكن لأتصوّر أن أكون محظوظاً جداً في تلك اللحظات، فالحظّ يأتي مرة و يروح، قلت لنفسي: تلقّفه يا رجل. لم يدُر بخلدي أن طلباً بالتحدث مع لبنان من دولة عدوة، يمكن أن يتحقق بهذه السهولة، فرجوته إبلاغ أيّ مواطن في لبنان وبأية طريقة كانت، أنني لا أزال على قيد الحياة، ليجيبي على الفور: «هاك الهاتف، تكلم»، وليخرجه من مكانه ليضعه بتصرفي. تمتد يدي نحوه... ومن ثم تتجمد في الهواء. يدي والهاتفُ وجهاً لوجه، كلّ ينظر بعيون الآخر، والطبيب مستهجن وملحاح، تفضل.. تفضل... قلت له: ألا تخشى من العقاب؟ وقلت لنفسي: أمّا وقد ارتضى التضحية فلا بأس.

أعطيته رقم هاتف زوجتي «جهان» فلم تكن على السمع. أعطيته رقم ابني البكر أدهم الذي كان في عداد المتظاهرين أمام مكاتب الأمم المتحدة في بيروت «الأسكوا»، ليجيب على الفور، فأتحدث معه ومع أخي معن بشور، كلمات معدودات مطمئنناً إياهما أن شظية خارجية صغيرة اصابت رجلي، وأن جرحي بسيط، فأنا الآن بحالة

جيدة في مشفى «بتاح تكفا»، فُتُنقِلُ المكالمةُ معهما مباشرة على إحدى الفضائيات، لأعتذر بعدها عن عدم المتابعة، منعاً لإحراج هذا الطبيب الذي لن اذكر اسمه الآن، ولن أنساه ما حييت.

بانتهاء المكالمة مع لبنان تنزاح صخرة كبيرة عن صدري. وبعدها وصلت الرسالة «بالمولود الجديد» رحت مجدداً أتفرَّغَ لنفسي، فأحدُ موقع جراحي على خارطة جسمي. وقبل أن أنهِيَ المهمة يتولى الكشف عليّ طبيبان يتحدثان الإنكليزية، فأؤكد بحدود فهمي لهذه اللغة، ولحالتني الصحية، كما أحسها، أن ما توقعته من أضرار كان صحيحاً. لا خوفَ على الرجل اليسرى، أما اليمنى فقد فعلت الرصاصة فِعْلَهَا في أحد الأعصاب المؤدية إلى القدم اليمنى. فحرقته وقطعته في آنٍ، ما أدى إلى نزيف داخلي.

إذا فالرجل اليمنى «معطوبة»، وسينطبق علي منذ الآن وحتى إشعار آخر وصف «الصبي الأعرج»، ويا ليتني أعود صيباً... ولو أعرج. عزَّيت نفسي ومنيَّتها، حين استعدتُ ما يقال في الطب الشعبي الشائع إن ضَعْفَ أو جرحَ عضو في الجسم، يؤدي إلى تقوية عضو آخر، وعليه فلا بدَّ لقطع عصب من أن يؤدي إلى شد عصب آخر، والله أعلم.

لقد فعلت المكالمةُ مع لبنان فِعْلَهَا المعنوي، فشعرتُ أن كل أعصابي سليمة، وراودتني فكرة تحدي واستفزاز من يصادفني، فلو جاء أحد الجنود لركلته باحدى رجلَيَّ النازفتين.

التفتُ من حولي لأجد نفسي مع ستة من الأتراك في غرفة واحدة

وقد أنهكهم الإعياء.

حباً لمصل تتدلى ربيعة، وأبرّ تغور في شرايينهم كأنها دبائيس
على خارطة الجريمة، وأجساد لا حراك فيها. صامتون لا يتحدثون مع
بعضهم البعض. ألقى عليهم السلام بالعربية، فأجاب البعض "بالتركية"
هزاً بالرأس، وصمت الآخرون عجزاً عن الكلام. رغبة الكلام عندي
جامحة، وصعوبة النطق عندهم واضحة.

شعرت بنفسى أثقل على الآمهم، فتركتهم يرتاحون.

* * *

كان الناشطون الفلسطينيون على ظهر الباخرة قد وزّعوا علينا لائحة
من «التعليمات» لاتباعها لدى حصول الأسر.

تقول إحدى هذه التعليمات: يَطلبُ الأسيرُ سفيرَ بلاده إذا كان بين
بلاده و«إسرائيل» تبادل دبلوماسي. أما في الحالات الأخرى فيطلبُ
حضور مندوب عن الأمم المتحدة، وسيكون رجل من الصليب الأحمر
غالباً هو المندوب.

يأتي القنصل التركي لزيارة جرحاه مرة بعد المرة، أما أنا «فيتيم»
أو «مقطوع من شجرة». أسخر قائلاً: «ما بك يا لبنان لا تقيم علاقة
دبلوماسية مع «جارتك» إسرائيل، فيزورني السفير أو القنصل؟ ليبلغ،
في ما بعد المسؤولين أنه اهتمّ بأحد مواطنيه وقام «بالواجب الوطني»
على أكمل وجه، ويأخذ الصورَ معي لينشرها في وسائل الإعلام اللبنانية،
ومن ثمّ تجيء زوجته وعائلته ليقدموا لي باقات من الزهور، ويسألوني
عن «احتياجاتي الشخصية»، ليعودوا في المساء إلى «نادي سفراء الدول
العربية في إسرائيل» للتنادم والسهر، ومن ثمّ يُلقون عليّ باللائمة لما

قمتُ به من مغامرة لا تُحرّر فلسطين.

وددت لو أن كل الجرحى العرب شاركوني الغرفة، لأعرف عدد الدول العربية التي تعترف بإسرائيل، حتى تلك التي لا تقيم علاقة دبلوماسية معلّنة مع هذه «الدولة».

طلبت لقاء مندوب الأمم المتحدة، الذي جاءني بعد ساعتين، وأخذ من المعلومات ما يكفي لتطمين الأهل في لبنان. هي ساعات قليلة، وألقي نفسي كأني في مشفى بيروتي. أطباء وممرضون عرب، والصحافيون بالرغم من المنع الصارم للزيارات، لا أدري كيف تسلّوا للتحية والاطمئنان والتطمين. يا دكتور: «وضعك الصحي مستقر، وصورُك محمولاً من المسعفين على السفينة أو ممدداً على الأرض، أوحى للأهل والمعارف أن الخطر بعيد عنك، فلا مجال للتلاعب بحالتك الصحية، أو لإيذائك لاحقاً فقد أصبحت قضيتك معلومة...» ومع كلّ زائر عربي كنت أرسل رقم هاتف الأهل والمعارف.

أكادُ أكون في مستشفى الجامعة الأميركية في بيروت، فتلك تُشبه هذه من حيث المظهر الخارجي والهندسة والتقطيع، ربما لأنّ جهة أميركية واحدة هي البانية، وهي المشغّلة.

حركة الجنود لا تهدأ. يدخل الضباط والجنود من مختلف الأجهزة. تُعرف وظائفهم، من اختلاف بدّلتهم. ينظرون إليّ وبذهبون. بعضهم يقف في مدخل الغرفة يتفحص من بعيدٍ وينصرف. آخرون يقتربون مني وهم يتحادثون، يهزون رؤوسهم بالموافقة. لقد فهمت بالعربية ما كانوا يقولونه بالعبرية: «هذا الجريح هو ذاته هاني سليمان الذي جاء إلينا في شباط 2009». كانت نظراتهم المقيتة نحوي، الباردة

برودة طين الشتاء، تؤكد «معرفتهم بقصة هذا الرجل». نَظَرُ بِشَدْرِ وبدون انفعال، فَهَمُّ رجال أمن، وإظهار الشعور لدى رجل الأمن ممنوع.

إنها العاشرة مساءً. عرفت ذلك من ساعة معلقة على الحائط. يتقدّم مني طبيب وممرضة يوحيان لي بضرورة إجراء عملية. تحركت بصعوبة في سريري حتى ارتفع رأسي قليلاً لأسألهم عن نوع العملية، فكان الجواب أنها تنظيف وتعقيم وتقطيب، فقلت في نفسي: «تنظيف وإقفال منافذ الجروح... لا خوف عندي، أما «التعقيم» فمسألة أخرى.

توجست كثيراً ورحت أسألهم:

- كم من الوقت تستغرق العملية.
- ساعة واحدة.

- هل البنج موضعي أم عمومي؟

- كلا البنج عمومي.

- هل أستفيق بعد العملية مباشرة؟

- بعد ساعة من العملية.

لم يكن أمامي سوى الموافقة فأنا بين أيديهم، وإذا أرادوا بي شراً، فيمكنهم تمريره بالمصل. ربع ساعة ونعود، قالوا.

راحت الأفكار والأسئلة تتلاطم في ذهني وتأخذني ذات الشمال

وذاوات اليمين.

كلمة التعقيم تحتمل أكثر من معنى.

فإذا أرادوا تعقيم الجرح فلا بأس، فأنا أسير حرب وجريحها.
أما إذا أرادوا «تعقيمي» وقطع نسلي فقد وصلوا متأخرين، وفي كل
الأحوال... حمى الله أولادي فأنا فخور ومكتفٍ بهم، أما زوجتي
«الصبية» الخمسينية فقد أدت قسطها للعلی بالإنجاب.... مازحت نفسي
قائلاً: وما همّي، فالفلسطينيون في كل مكان، وأهلنا في الجنوب كما
هو معروف، يتكفلون بسد هذا «النقص الفادح» في النسل.

قلت لنفسي مازحاً: إذا أفقتُ بعد ساعة، فهذا يعني أنهم كقاداتهم
«صادقون» في كل شيء، وإذا لم أفقُ ابداً، فأنا سأفضحهم وأوصي
عائلتي بالقول: إنهم يكذبون في كل شيء.

وبالفعل تبشني الساعة المعلقة على الجدار، أنهم «صادقون في
كل شيء».

توزّع وقتي بين النوم ساعةً واليقظة ساعة أو أكثر. في لحظات
اليقظة كنت أسأل نفسي لماذا لم يأتوا للتحقيق معي حتى الآن؟ ففي
المرّة السابقة طال التحقيق لساعات. هل لأنني جريح، ومراعاة لجراحي
سيقفزون عن جدار التحقيق، أم أن وقته لم يحن بعد؟

وكنت أتحوّر في داخلي قائلاً، من هي الجهة الأمنية التي ستتولى
التحقيق؟ موقناً أنها ستكون الجهة نفسها التي تولت المهمة في المهمة
السابقة. إنها مهمة، كما قدرتُ، لا تدخل في صلاحية «الموساد»، ولا
المخابرات العسكرية الإسرائيلية. ولا «الشاباك»، الأمن العام. إنها
تدخل في صلاحية مخابرات القوى البحرية. ومهما يكن من أمر فإن

الجهة نفسها التي تولت التحقيق سابقاً ستكون على صلة به، حتى لو لم تكن هي المعنية مباشرة بالموضوع.

في فترات النوم على قِلَّتِها كانت الرؤى غزيرة. ففي كل الأحلام كما هو معروف، يكون الماضي بقربه والبعيد، طَبَقَ المائدة الرئيسي. وفي إحدى هذه الأحلام أعادني الماضي القريب إلى أجواء التحضير لسفينة الأخوة اللبنانية، في شباط 2009، مع الأخوة، زميل مهنة المحاماة ورفيق العمر خليل بركات، ومع ذي الباع الطويلة في تأمين السفينة الحاج عبد الله الترياقى، فيصل درنيقة الذي وصل الليل بالنهار لتأمين وصول المساعدات إلى ميناء طرابلس حيث انطلقت السفينة، والحاضر دائماً مأمون مكحل مخزن المعلومات ومخزن المساعدات المجموعة من بيروت وباقي المناطق اللبنانية ومع مقرر لجنة المبادرة الوطنية لكسر الحصار عن غزّة، الجندي المجهول في كل نشاط أو تحرك ديب حجازي. ومع الإعلاميتين المقاتلتين على ظهر السفينة سلام خضر وأوغاريت دندش، ومع الشيخين داوود مصطفى وصلاح الدين العلايلي، اللذين كانا على ظهر السفينة مع المطران ايلاريون كبوجي شخصاً واحداً بأزياء مختلفة.

أما الأحلام البعيدة فقد «أعادتنى إلى طفولتي»... وعادت بي الأيام إلى أحداث سنة 1958، إلى ما يعرف بالثورة على حكم كميل شمعون. في تلك الأيام كنت في التاسعة من عمري، عندما «حظي» شقيقي الكبير هشام، رحمه الله، ببندقية «أف أم»، وصلت مع مئات من البنادق عبر جرود عرسال المتاخمة لسوريا، دعماً للمقاومة العربية في لبنان.

على المقلب الآخر من التلة المقابلة لمنزل أهلي في بلدة «بدنايل» البقاعية، كان لأهاليها موعد ليليّ مع الأحداث، يراقبون ما يدور من معارك بين الجيش والثوار في مدينة بعلبك التي تبعد عشرين كيلومتراً عن البلدة، وتحديدأ في منطقة «الشيخ عبد الله»، حيث كانت النيران المشتعلة هناك، تُرى ليلاً بالعين المجردة أحياناً، وكان دويّ القصف «يُرى» بالأذن أحياناً أخرى.

كانت حشريتي تأخذني إلى تلك التلة وأنا «أصغر الثوار»، «فأدسُ أنفي» بينهم مستفسراً من جهة، ومحاولاً تأكيد حضور المتطلع لأصبح رجلاً من جهة أخرى.

لم يقتصر اللقاء فوق التلة على المسلحين، بل كان «يستضيف» عدداً متراوحاً من الأهالي يحضرون بدافع القلق أو الفضول لمعرفة ما يجري من أحداث في بعلبك.

وأذكر من تلك الأيام، أنني كنت أتحينُ فرصَ غيابِ أهلي وإخوتي عن المنزل، وكان والدي ما زال على قيد الحياة يعاني من مرض عضال، فأسحب البندقية من مخبئها وألهو بها، متفحصاً، مخرطشاً، مصوباً بدون إطلاق نار على أهداف وهمية في التلة المقابلة للمنزل.

استمرت علاقتي السرية بالبندقية ما يقارب السنة، أخرجها من مخبئها، وأجيل النظر فيها، إلى أن انفضح أمر «علاقتي بها»، يوم أطلقت رصاصة على هدف مائل أمامي، فركضت عمتي تولولُ بغضب وخوف، الى أن حضر أخي الكبير مبتسماً بغضب مفتعل، أوغاضباً بابتسامة لم يستطع إخفاءها، فنقلَ البندقية من مخبئها، وانقطعت أول علاقة لي، كفتي يافع، بهذه الأنثى التي تكبرني عمراً، والتي لم أسمع صوتها إلاّ

مرة واحدة.

انقطعت علاقتي الخاصة بها عدة أشهر، إلى أن «حضرت قضيتها» في اجتماع عائلي، للتداول والبحث عن كلفة عملية جراحية للوالد الذي كان يعاني من المرض العضال.

أستميح القارئ عذراً لأصف شقيقي هشام... «بالكبير»، لأنه كان كبيراً بالفعل. فبعد وفاة الوالد سنة 1959، حوّله المسؤولية إلى «والد» لي، ولثلاث أخوات وأربعة أخوة، ولعمة طاعنة في السن، ووالدة داوت حالة القلة بصبر جميل.

هشام، «والد» بعمر العشرين، لعشرة أولاد قصر، لا يكبر أحدهم الآخر إلا بفترة «حملان البطن» على حد تعبير أهل القرى. لا مورد عندنا، سوى بقرة حلوب، كانت الوالدة تدير وتعمل المنزل من مردودها المادي الناشئ عن بيع الحليب، وكان هشام في أول عهده بالوظيفة، كمدرس محدود الراتب يعاونها في إدارة المنزل.

كانت البقرة رفيقتي اليومية، أخذها كل يوم بعد المدرسة إلى المروج الخضراء، أو إلى جوانب سواقي المياه في سهل البلدة، فتأكل «ما يحلو لها» وما يُشبعها، لأعود بها «لُتْشِيعْنَا» هي في اليوم التالي. وأتذكر جيداً كم كان سروري غامراً حين كنت أتحمس خاصرتيها وأطمئن أنها قد شبت عشباً وارتوت ماءً، فإن في ذلك إشارة إلى أن ضرعها سيغدق كمية لا بأس بها من الحليب. وكنت وأنا اتحصّر للامتحانات... أتوزع عيناً على البقرة الأكل، وعيناً في كتاب مأمول.

تأكيداً لأهمية تربية المواشي، كان يقال في القرى إن البقرة «تفتح منزلاً». لكن مع كثرة عديدنا في المنزل لم يكن ثمن الحليب يكفي مصروف العائلة، فكان جزء منه يذهب «للاستهلاك المحلي»، والباقي يباع، مضافاً ثمنه لراتب هشام المحدود، فحاول أهلي بيع إحدى قطع الأرض التي اشتراها الوالد بعد عودته من أميركا سنة 1936. كنت اسمع مجازاً حول تدني أسعار العقارات أن «سعر الأرض... بالأرض»، فلم نجروء على عرض أي عقار للبيع، كما لم يتقدم أحد من أبناء البلدة بعرض مقبول. وكما يقال، لو «خليت فنيث»، كان الأقارب في حدود قدراتهم تلك الأيام، خير معين للعائلة على تجاوز بعض المصاعب المادية على غير سعيد ولأكثر من مرة، جزاهم الله خيراً.

اشتد المرض على الوالد في مطلع صيف 1959، وكانت العملية الجراحية الخيار الأخير للشفاء غير الأكيد. من أين المال...؟ سؤال، أضحى جواباً عن كل طلب لمصروف أو خرجية، أو ثمن حذاء أو فستان، فكيف بتكاليف عملية جراحية؟

كانت المداولاتُ بهذا الشأن تتم بمعزل عني كطفل يافع، باستثناء عدد قليل منها كانت تفرضه صدفةً حضوري، أو استراقياً للسمع لمحادثات جانبية.

المداولة الوحيدة التي دعيتُ إليها، كانت يوم اتخاذ القرار بوجوب تحديد يوم العملية الجراحية. اجتمعنا في «غرفة الصالون»، واقترح أحد اخوتي إغلاق الباب كي لا يتسرب مضمون الاجتماع إلى الخارج. وكان جواب هشام: أن ليس لدينا ما نخفيه... فالبلدة «عائلة واحدة» تعرف واقعنا المادي، وتحدث عن أوضاعنا وتتعاطف معها، مضيفاً بالقول،

وصوته يرن في أذني الآن: ليس في متناولنا ما نبيعه لإجراء العملية سوى البقرة أو البارودة، فماذا نبيع...؟

وكعادته فقد استمع إلى الجميع، كما استمع اليّ أنا أصغرُ الحاضرين وآخر المتكلمين، فقلت: نبيع البارودة لأن البقرة «تُعِيشُنَا»... ربما كان قولي هذا، نابعاً من انقطاع اتصالي بالبندقية، ومن معاشتي اليومية للبقرة التي أصطحبها إلى المراعي.

بعد جولة من الحوار مشوبةً بالحزن والقلق. وبشيء من الهيبة جاء الكلام الأخير «للرئيس» حاسماً معبراً. >> من لا يملك شيئاً لا يمكنه بيعه. البقرة تُشْرَى وتباع، والبندقية تُؤخَذ ولا تباع. البندقية ليست ملكاً لنا، إنها ملك للأمة <<... بكى الجميع يومها، وبكىْتُ على بكائهم وانتقلوا إلى غرفة الوالد يتحلقون حول فراشه.

كان الوالد رجلاً شبه أمي، ساقته حظوظه خلال الحرب العالمية الأولى إلى العمل في محطة بلدة «رياق» العسكرية القريبة من بلدتنا، كرئيس لفريق من الشغيلة في المحطة. خلال العمل إكتسب بعض التعابير والمفردات الإنكليزية التي كانت زادَه للسفر وقد كان الكساد والجراد والهواء الأصفر والطاعون، مفرداتٍ مألوفةً فرضت نفسها على حياة لبنان والمنطقة، وكان الظفر بالسفر نعمةً ما بعدها نعمة، على قاعدة «أُنْجُ سَعَدَ فَقَدَ هَلَكَ سَعِيدٌ».

وصل الوالد إلى أميركا واشتغل في شركة «فورد» لإنتاج السيارات. وكان يستخدم بعض ما يدّخره من أجوره كدفعة أولى في شراكة، لشراء قطعة أرض صغيرة في ولاية تكساس، ثم يبيع أسهمه من الأرض بربح معقول، ويوظف ربحه لشراء أسهم أخرى، إلى أن

تحسن وضعه المادي وراجت أعماله فأصبح من أركان الجالية اللبنانية هناك.

كنت أسمع من كبارنا أنه كان رجل خير ووطنية في المهجر، يساعد المحتاجين اللبنانيين على تدبّر أمورهم، ويتبرع للدوريات والنشريات العربية والإسلامية الصادرة في المهجر. وكان يتواصل خطياً مع عدد من الجاليات العربية في أميركا الجنوبية. بعض هذه المراسلات ما زال محفوظاً لديّ في المنزل.

راجت الأخبار في البلدة تقول إن الله أعطاه في أميركا حسب نيته، فغناه وأغنائه. وراحت المراسيل إليه تترى، منها من يدعوه إلى العودة والاستثمار في بلده، ومنها من يدعوه لشراء أرض في البلدة أو في منطقة «الخوام» في بعلبك. واللافت في هذه المراسيل أن أياً من محرريها لم يقترح عليه شراء قطعة أرض في بيروت لأنها في مطلع القرن العشرين كانت بعيدة جداً، ولم تكن موضع اهتمام أبناء البلدة البعيدة عن بيروت. وهو لو فعل، لكننا الآن «بيارطة» أغنياء.

واحدة من هذه المراسيل «سبحت» عكس التيار، مؤرخة في نهاية سنة 1929 أرسلها له ابن أخيه يقول فيها بالحرف: «يا عمي لا تعطِ سمعك ل أحد، لست بحاجة إلى الأرض في لبنان. صحيح أن وضع الدولار صعب والاقتصاد الأميركي منهار هذه الأيام، لكن الدولار أقوى عملة في العالم... امسك دولارك»...

وكما هو معلوم فإن الجواب على الرسالة تلك الأيام كان يتأخر لعدة أشهر، وجاءت رسالة مطوّلة من الوالد إلى ابن أخيه «الحاج هدار» تنتهي إلى القول: «تطلبون مني التمسك بالدولار، وأنا من بلاد الدولار

أطلب منكم التمسك بعروبيتكم وإسلامكم».

حين «إستيقظت» من رحلتي في الماضي البعيد وذكرياته، فسّرت سبب «عودتي» إلى تلك البندقية بما رأيته على السفينة في تلك «الساعة التي هزّت العالم». كما فسرت سبب عودتي إلى الطفولة هو أنني قد «ولدت من جديد». في كل الأحوال لا أريد إلزام القارىء العزيز «بتفصيل» تفسير على قياسي، قد لا يوافق عليه صديقنا المشترك «فرويد» ملك تفسير الأحلام، العاجز عن تفسير لماذا لم تتحقق أحلام البعض، وخصوصاً عند العرب!.

تركيا المسلمة هي اليوم بلدٌ «عربي» بامتياز، فأحلامي والرؤى أبقتها في البال، ويقظتها فعلت فعلها، فاستقام ما كان مُعوجاً.

* * *

هي الخامسة صباحاً. استفيق من نوم عميق نعمتُ به بعد سهر دام ستين ساعة تقريباً على صوت حاد عالٍ يقول: «هاني سليمان قم. لقد عدت ثانية... ألم تتعلم في المرة الأولى؟ انت لم تدفع الثمن الكافي، ستدفعه اليوم مضاعفاً. قم... استفق».

تقلبتُ قليلاً وتحصلت بصعوبة ونظرت إلى أعلى، لأرى رجلاً مربع القامة، كثيف الشعر، مع ميل إلى الاحمرار في الوجه. تفحصت فيه ملياً. كنت قد تنبأت بالجهة التي ستولى التحقيق، ولم يذهب بي الحدس او الاحتمال للتنبؤ بالشخص الذي تولى التحقيق معي في المرة الأولى. إنه هو. لقد عرفته للتوّ. لم أتكلم، بل لم يدعني أتكلم ليرشقني بسيل من الأسئلة دون أن يطلب جواباً عليها.

- لماذا قاومتكم جيش الدفاع الإسرائيلي؟

- لماذا ضربتم جنودنا بالسلاح الأبيض؟

- لماذا احتجزتم عدداً منهم على السفينة واعتديتم عليهم؟

كان الفلسطينيون على السفينة قد أجروا لنا «دورة تدريبية» على مواجهة التحقيق، وأكدوا علينا عدم الجواب على أي سؤال إلا بحضور محام، وأضافوا شارحين:

«لن يكون دور المحامي هاماً في التحقيق، فالقضية معروفة، وأن مجرد وجوده إلى جانبك يفني بالعرض لمنع إستغلال الإفادات أو تحويرها، والأهم من ذلك... أن المحامي ينقل إليك ما يجري في

الخارج فتكون على بينة من أمرك.

وكما لقنونا في «الدورة التدريبية» أجبنا: «أنتم قراصنة، اعتديتم علينا في المياه الدولية، أعيدوني إلى السفينة». وأغمضت عيني وأدرت ظهري محاولاً النوم مجدداً، ليجيني بشيء من الاستفزاز والتهكم: «جئت لتنام هنا؟» قم تحدث معي، لم أعهد أنك جبان، فانت شجاع كما تروي قصتك عن محاولتك الأولى، قم للحوار رجلاً لرجل، قالها بالانكليزية «Man To Man».

أذكر أنني في تلك اللحظة فرحت كثيراً، لأن رواية «غزة في مرمى البصر» قد وصلتهم. وباعتقادي كان حصولهم عليها بدافع الأرسفة وعمل المخابرات، وليس رغبة بالاطلاع على الرواية لقيمتها الأدبية، وبخاصة أنني لست من كتاب القصة أو الرواية.

تذكرت ما أوردته في تلك القصة عن التحقيق معي، وعن مدى اهتمام «الإسرائيلي» بالآداب عموماً واستحواذها على فكر بعض الكتاب والأدباء داخل «إسرائيل»، ولعل من الفائدة في شيء أن أستعيد ما دار بيني وبين هذا الضابط رفيع الرتبة.

- «أنا ضابط في جيش العدو الصهيوني الغاشم»... قال هذه

العبارة بتهكم.

- أعرف ذلك.

- هل تريد أن تشرب القهوة؟

- كلا.

- هل تريد أن تدخن؟

- كلا.

- أنت لبناني شيعي مثقف، هل تخبرني لماذا أتيت إلى غزة...
هل لك أقاربٌ هنا؟

- أنت تتكلم العربية بطلاقة... ولولا ذلك، لسألتك من أين
أنت... هل أتيت من «الفالاشا» أو من «هولندا»، أو من «بولونيا»؟
- ماذا كنتم تُلقون من على ظهر السفينة؟ لقد صورنا كل
تحركاتكم.

(ملاحظة: أبلغني رواد السفينة في ما بعد، أنهم جميعاً سئلوا السؤال
عينه)

- لم نلقِ شيئاً.

- يا دكتور أنت كذاب.

- كنا نلقي بعض أعقاب السجائر وبعض قشر الليمون للأسماك
التي جاءت بسبب حصاركم لشاطئ غزة.
- أنت مصرّ على الكذب.

- لقد ألقينا في البحر عدداً من الصواريخ... هل ستعيدونها إلينا؟
لقد أذهلني هدوؤه، تجاه الأجوبة، وكان يقف خلفه شاب وفتاة
هما أشبهُ بصنمين، فلم يديا أي ردّ فعل سلبي، أو أية حركة تنم عن
فهمهما لما أقول، وليس من تفسير لذلك سوى أنهما يجهلان العربية.
يشعل سيجارة ويصمت فأسأله، هل لي ببعض الأسئلة؟

- تريد أن تحقق معي؟

- كلا، أريد ان أستفسر، لعل في أسئلتى أجوبة عن أسئلتك.

- تفضل.

- لقد أمضينا ستين سنة من الحروب، تقتلون أولادنا ونقتل أولادكم، وهناك ستون قادمة، ألسنت متزوجاً، ألا تخشى على أولادك من المستقبل؟ هل أنت مرتاح الضمير والبال عندما تعود إلى المنزل بعد العمل؟

- هذا صراع لا ينتهي بيننا إلا بحرب عالمية نالته.

- لقد عرضنا عليكم دولة ديمقراطية في فلسطين يتعايش فيها أبناء هذه الأرض الحقيقيون، مسلمين ومسيحيين ويهوداً، لماذا ترفضون وتأتون بيهود العالم إلى فلسطين، وهم لم يولدوا فيها.

- نحن قبلكم في هذه الأرض.

- ليس صحيحاً، وعلى فرض أن ما تقوله صحيح، ألا تقبلوننا شركاء لكم في هذه الأرض وعمرنا فيها الآف السنين؟

- لا جواب.

- يراودني سؤال، كثيراً ما فكرت فيه.

- تفضل.

- إن اليهود في أوروبا وأميركا يقودون العالم بالأدب والسياسة والاقتصاد والفلسفة والمال والإعلام، وقد حصدوا أكبر عدد من جوائز «نوبل» في مجالات علمية شتى، ولكنني لم أسمع ولم أقرأ عن أي يهودي داخل «إسرائيل» قد برع بالأدب، أو القصة أو الرواية أو المسرح أو الشعر أو الفن عموماً، هل من تفسير لذلك سوى أن فكركم محموم، وأنكم مشروع عدواني وغير انساني؟

- هذا غير صحيح... هناك الكثير.

- أعطني مثلاً عن أديب واحد.

- هذا غير صحيح.

- أنتم تتفوقون بالتكنولوجيا والحروب، وقد حولتم «إسرائيل» إلى شبه ثكنة عسكرية وإلى مراكز أبحاث علمية، أما الأدب الإنساني

فشبه معدوم لديكم، هل هذا بسبب العسكرة في «مجتمعكم»؟

- هذا غير صحيح.

يعود الرجل فيأخذ المبادرة مني بعد ان «نسي» انه ضابط في جيش العدو الصهيوني الغاشم.

- متى سيصبح لبنان شيعياً، ومتى ستجتاحون بيروت مجدداً؟

- لن يصبح لبنان شيعياً، فهو بلد متنوع الطوائف، وعندما يصبح

لبنان شيعياً يكون مشروعكم قد انتصر، لكي تبرّروا عدم تقبُّلكم للآخرين.

- لماذا أنتم متطرفون إسلامياً وتكروهونا؟

- كل الاستطلاعات تقول إن نتيهاو ولييرمان أصحاب الدعوة

العنصرية سيربحان الانتخابات المقبلة عندكم.. تتحدثون عن التطرف الإسلامي وقد أفرغتم القدس من مسيحييها.

- الى أين تعتقد أنك ذاهب الآن؟

من شعوري بالتفوق النفسي عليه، لم أفقه معنى سؤاله، وكان

يتابني شعور بأن التحقيق سيتهي بنا إلى السجن كنتيجة منطقية، «لخرقنا قوانين الملاحة البحرية»، لكن علمت في ما بعد أن بعض

رواد السفينة بعد التحقيق معهم قد أبلغوا وأشير عليهم بضب حقائبهم مقدمة «للهجرة إلى الشمال».

- إني عائد إلى غزة...

- لا... أنت ذاهب إلى السجن.

- أتمنى أن تحاكموني، لأجعل من هذه المناسبة محاكمة لكم على جرائمكم بحق الشعب الفلسطيني والشعب اللبناني وخصوصاً إبان حرب تموز 2006 الأخيرة، وحرب غزة قبل اسابيع، لكنكم لا تتحملون بقاءنا ليلة واحدة هنا.

- لماذا؟

- هل نسيت أنني قادم من لبنان...؟

- يبدو لي أنك رجل سياسي مرتبط بحزب الله الإرهابي وحركة حماس التخريبية.

- كل عربي يتمسك بأرضه هو بنظركم مُخرب... حتى الشهيد ياسر عرفات، بالرغم من توقيعه اتفاق أوسلو إعتبرتموه مخرباً وإرهابياً، فحاصرتموه وقتلتموه بالسم.

- ياسر عرفات دجال ومخادع كبير لا تحدثني عنه. انتبه لنفسك، قالها بالإنكليزية «Take care»، ثم وقف صامتاً لبرهة وبكل هدوء قال لي: سلّمي على السيد حسن نصر الله، نحن نكرهه لكن نحترمه... قل له العقيد «فلان» يسلم عليك.

- يسعدني أن أقول لك إن هذا السلام لن يصل.

خرج متأملاً... وعند الباب إنفتحت إليّ، وقال: وضّب حقائبك.

ما زلت بعيداً عن فهم معنى قولة «وضب حقائقك»، فأنا في انطباع أن وجهتي أحد السجنون فقلت له: «هذه السفينة هي وقف للفلسطينيين وحرام عليكم، هي حلال لأهل غزة، وحرام عليكم».

وبالعودة لهذا الضابط القديم الجديد المنتصب أمامي، لم اجد حركة أفضل من رفع رجلي النازفة بوجهه والقول له بكل برودة: «لن أتحدث معك إلا بوجود محام، وفي مطلق الأحوال أنت من رجال الأمن ولن أتحدث مع أحد إلا إذا كان ذا صفة قضائية».

شعرت أن حركتي هذه، كادت أن تدفع به إلى تفريغ مسدسه في رأسي، لكنه بشيء من الحدة والتهكم قال: «وهل نسيت أنني حققت معك في السابق بصفتي من رجال الأمن؟»، لأجيبه بصورة قاطعة: لن أتحدث معك إلا بوجود المحامي، لينصرف عني وأعودَ إلى نعمة النوم التي لن تطول.

* * *

أنا على السرير «كالزلعوم» في النار. أتمطى... أطول وأقصر،
أنضخم وأنحل، أطوي رجلي وأمدهما، علني اتخفف من الآلام، أنام
وأستفيق. وفي كلتا الحالين... النوم واليقظة، كان التركيز مسيطراً على
تفكيرى... وحول ما يمكن أن يحصل في الخارج؟ في مصر ولبنان
والأردن وسوريا و.... وماذا يجري في ألمانيا وفي إيرلندا واليونان
حيث انطلاق سفيتي الناشطين الأوروبيين، وفي السويد حيث عدد
من النواب كانوا بصحبتنا.

ماذا حلّ بمن نجا من القتل أو الجرح؟ خاصة تلك الأميركية
الحائزة على جائزة «نوبل»، وتلك المرشحة للرئاسة الأميركية، وذلك
الضابط الأميركي الذي استقال بعد عودته من العراق، وهو قد وشم
على خذه رسماً بشكل دمعة ذرّفها على طفل كان زميله يقتله بدم بارد.
وكان حاضراً على الدوام الشيخ رائد صلاح الذي يعرف الجميع مدى
حقد الاسرائيليين عليه. وكان المطران كجوجي حاضراً في جميع هذه
التساؤلات.

إذا كانوا قد أهانوه في المرة الأولى، فماذا سيفعلون به هذه المرة.
لعلّ الفضول الأهم الذي كان يجتاحني هو معرفة رد الفعل التركي
بشارعه وحكومته على قتل وجرح عدد كبير من النشطاء الأتراك.
خمسٌ وستون ساعة كنت فيها نهياً للغموض، لم استقبل زائراً
واحداً سوى مندوب الصليب الأحمر الذي أتى في اليوم الأول،

وتبحرت صورته من ذهني، وسوى عدد من الممرضات الفلسطينيات اللواتي حظيتُ منهن برعاية عليّنة دافئة، ورعاية ضمنية أكثر دفئاً وحناناً. لمستها من تصرفاتهن ونظراتهن وغمزاتهن التي لا تحتاج إلى تفسير. في الثانية عشرة ظهراً، تنتهي خدمة إحدى الممرضات اليهوديات، فتلفتُ إليّ قائلة: «لقد انتهت مهمتي اليوم، وستحظى الآن بعناية من نوع آخر، هذه السيدة اسمها فاطمة، هي بنت دينك ستتولى خدمتك والاعتناء بك». وقبل أن تكملَ جملتها، تجيها فاطمةُ بلهجتها الفلسطينية المعروفة: «... بخدمو بعينوني وإليّ الشرف».

- يا فاطمة ماذا يجري في الخارج؟

- أنا ما بحكي بالسياسة يا أستاذ، لكن أنت أخويّ بالدين وبتحب فلسطين لازم أخدمك بعينوني. وابتسمت ابتسامة تكفي رؤيتها لشرح صدري، ولا يكفي مضمونها لشرح عدة قصص كهذه التي بين يدي القارئ.

وأنا في لجة التفكير بما يجري في الخارج، أرى رجلاً يدخل الغرفة ويخرج، ثم ليعود باحثاً عني. يتقدّم مني بخطى لم استطع تمييز حركتها ما بين سرعة الملهوف أم سرعة المتمهل الدارس لخطواته.

- «أهلاً وسهلاً... نعم أنا من تقصده، تفضل...»، جلس بسرعة وكأنه جاء ليحيب عن تساؤلاتي الداخلية التي لم أشرك أحداً فيها، أو جاء ليبلغني رسالة عاجلة.

- «أنا المحامي فؤاد سلطاني من «جمعية عدالة» في فلسطين،

جئت لخدمتك».

بالله، كيف لي أن أسأله عن الخارج قبل أن يكمل جملته، قلت
لنفسي. لكن الإلحاح كاد يطيح باللياقة وأصولها. وبشيء من التحسب
والحزم الداخلي قلت: تمهّل يا رجل... أشكّره في البدء، ومن ثمّ إسأله
حول ما يجول في خاطرك...

وبسبب من الفضول والإلحاح الداخلي قلت بصمت: اقتنص
الفرصة يا رجل، فاللياقة - على لطافتها - تضرُّ أحياناً بصاحبها، فتحوّل
بينه وبين رغائبه، لكن، وبالرغم من هذا الجموح عدت وقلت: لا
بأس فالوقت أماننا، وليس باعتقادي أنه سينصرف لتوّه ويتركني نهياً
للمغوض.

أضبط أعتة أعصابك يا رجل ودعه يكمل كلامه.

كانت مقدمة كلامه ضرورية لإشاعة الاطمئنان في روحي،
ولالإيحاء بالثقة المتبادلة بيننا، فلا أذهب بتفكيرى مذاهب شكٍ خاطئة.
«أنا والد السجين راني سلطاني المتّمهم ظلماً بمراقبة رئيس الأركان
غابي أشكينازي. هل سمعت بمحاكمته الجائرة وهو يقضي الآن عقوبة
السجن لست سنوات؟»

كانت هذه الجملة عندي كافية لإطفاء جذوة السؤال وشهوة
الفضول.

أبلغته أسفي البالغ، وتحياتي الصادقة للعائلة و«الراني» الذي يدفع
ضريبة الاحتلال.

وكان، كما علمت من أخي عبد الله عبد الحميد، وأخي أسعد
حمود المشرفين على مخيمات الشبابية القومية العربية، أنه كان من

خيرة الشباب وأكثرهم مبادرة وتفاعلاً.

وعدت للسؤال: يا أستاذ فؤاد أريد أن أعرف ماذا يجري في الخارج، ليجيني متسائلاً مبتسماً: ماذا يجري في الخارج..؟ «مبروك لقد ربحتم الحرب». فشوارع العالم لم تهدأ منذ يومين غضباً واستنكاراً، وأعضاء الحكومة الاسرائيلية يشتمون بعضهم بعضاً ويتقاذفون المسؤولية، وبعضهم الآخر يُنكر معرفته بالعملية مستكراً عدم إعلامه بها. وحسني مبارك أمر بفتح معبر رفح إلى غزة. إنها «الحرب السادسة» وقد ربحتها. «أهنتك يا دكتور، عندك ولد الله يحميه، لقد رأيت على التلفاز، معنوياته عالية جداً وبالرغم من شبابه فإنه ناضج تماماً بارك الله بك ما ربيت».

دمعت عيناى فرحاً من كل جملة سمعتها.

حرص المحامي على التقاط الصور معي، لينقل في اليوم التالي في الصحف خبر زيارته لي، وتحريرى له وكالة قضائية لمقاضاة «إسرائيل»، ولينشر على البريد الإلكتروني صورة مشتركة - كرسية يعانق سريري-، مرفقة بتصريح له يحتمل فيه «اسرائيل» المسؤولية عن المجزرة.

فؤاد سلطاني محام يلتزم قضايا وطنه، في إطار سياسي واحد مع المفكر والسياسي الفلسطيني عزمي بشارة، والنائبة في «الكنيست الاسرائيلي» المناضلة حنين الزعبي. حين كنت ألتقي حنين على الباخرة وأحداثها، كانت أجوبتها مختصرة وسريعة. لقد كانت أسيرة البريد الإلكتروني والمكالمات الهاتفية، واللقاءات الإعلامية المقررة سلفاً.

كان انطباعي عنها أنها متعالية وسلبية. ولم أصح من هذا

الانطباع الخاطيء إلا حين رأيت «زملاءها» من النواب الإسرائيليين في «الكنيست» يتجاسرون عليها، وينكرون عليها حقها بتمثيل شعبها والنطق باسمه.

في معركة حنينَ معهم... أمواج من الحقد تحطمت على صخرة عنفوانها. وأفواج من الكراهية «تجمّدت» عند برودة أعصابها ورباطة جأشها. من تلك المرأة الصلبة بوجه الاحتلال إلى تلك الأم الحنون وذات القلب العطوف والأخت الحانية، حين حادثني من فلسطين وأنا في عمّان لتطمئن على صحتي، حين ذهبت مع أخي نبيل الحلاق، للادلاء بشهادتنا عن المجزرة أمام بعثة مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة.

* * *

اليوم الثالث يكاد يكتمل. ولا أعرف شيئاً عن مصيري في هذا المشفى. لم أعرف أن مفاوضات «على رأسي» كانت تدور بسبب تعنّث حكومة العدو وممانعته في إطلاق سراحي. مرة بحجة محاولتي دخول «إسرائيل» للمرة الثانية، وأخرى بحجة أن حجم الإصابة لا يسمح لي بترك المشفى، ومرة ثالثة بإصرار العدو على إخراجي من فلسطين عبر الأردن، لا عبر مَعْبَرِ الناقورة الذي عدتُ منه في المرة الأولى. ضحكت كثيراً لما علمت من حديث تلفزيوني ما قاله رئيس مجلس النواب الأستاذ نبيه بري، لأخي ورفيقي وزير الداخلية الأسبق بشارة مرهج، في معرض قلقه عليّ:

-خايف على هاني من إسرائيل؟

-خاف على إسرائيل من هاني.

أفكار على طريق النمل، يتداخل فيها الذاهب بالآيب، فيه النملة

الحاملة في فمها غلة الشتاء، وفيه النملة الخائبة غير اليائسة، تتراجع لتتقدم، والهدف واحد...

وما زاد في شكوكي حول وضعي ومصيري، جلبت في الغرفة، محوِّرها الجرحى الأتراك الذين بدأوا بالاختفاء واحداً تلو الآخر.

مغادرة الجرحى الأتراك، وتنظيف الممرضات للأرض، وإعادة فرش الأسرة الخالية، وروائح المنظفات أشعرتني بنقص الأوكسجين في رثتي. وتساءلت، هل انتقلوا إلى غرفة أخرى ليخضعوا للعلاج المكثف وجراحهم لا تزال على حالها؟. وككل شيء ضده من جنسه، فقد استنتجت أخيراً أن مغادرة الجرحى قد أشعرتني بشيء من الراحة والاطمئنان، وجعلتني أستعيد التنفس الطبيعي، لأن الممرضات قد نزعن إبر المصل من سرايين الجرحى... فإخلائهم للغرفة مؤشر على إطلاق سراحهم. إذن... هي بداية النهاية للأسر والاعتقال.

وحيداً في الغرفة، يتنازعي شعوران متناقضان... هم ذهبوا، وهذا مؤشر لذهابي، وأنا باق وهذا مؤشر لحالة جديدة يجب التعاطي معها بما يتطلبه الموقف من صلابة وكرامة.

لقد هزمناهم على ظهر الباخرة وربحنا الحرب، كما وصفها الأستاذ فؤاد سلطاني. وبدأت هذه الجملة القصيرة «ربحنا الحرب» تجد مطرحها في عقلي، لأن ما جرى حسب رأيه كان حرباً من نوع مختلف لم يحسب لها العدو حساباً، وكانت نتيجتها في صالحنا. أنا الآن أسير حرب واقعاً وقانوناً. هذا الشعور حلق بي إلى الأعلى طائراً على أجنحة من الفرح بلا قلقٍ يذكر... وببسمة مشفِّقة على حال زوجتي.

أثناء الإستعداد للسفر كانت «الست جهان» متوترة لدرجة عدم السيطرة على أعصابها. لقد تحايلتُ على نفسها في الرحلة الأولى، فهي كانت تُشعرنني بقلقها بخفر ومواربة مداراةً لشعوري وقراري بالسفر. أما الآن، فإن حيلتها على نفسها وعليّ قد انكشفت، حين اكتشفتُ أن لا حيلة لها في الحؤول دون مشاركتي في الرحلة.

خلال توضيب ثيابي، وبين كل قطعة لباس وأخرى تضعها في الحقيبة، كانت تخرع إشكالاً من تحت أظافرها... تصرخ بالأولاد لأتفه الأسباب، ولم تنجُ الخادمة من التأنيب لأنها تركت غرفتها مضاءة، فهذا هدر للمال لن تقبل به بعد الآن... يا للهول!

تلثفت إليّ لتلومني على عزوفي عن تزويد الحقيبة بربطة عنق لي في الرحلة، وتشتّم جرس المنزل الذي يوتر الأعصاب.

بين التوضيب والتأنيب، وافتعال الإشكال من كل الأشكال، كنت أتغامز مع ابنتي الحبيبة ريم موحياً لها بتفهم وضعها ومداراته. لم أنجُ بدوري من التأنيب لعدم تدقيقي بالمواعيد، وعدم اهتمامي بالتفاصيل. فأنا متهم عندها بأني لا أعرف متى تنطلق الباخرة من تركيا، ولا متى تصل إلى غزّة، وكم يوماً سنمكث هناك وكيف سنعود، بالطائرة أو بالباخرة ذاتها؟!

هي تسأل عن «أبسط» الأمور لمسافر يُفترضُ إمامه بقضايا السفر، لكنني عاجز عن الجواب. جلُّ ما تريده مني أن أعرف متى سأعود، لأجيبها بضيق وتململ: «معلش لما بوصل يا حبيبتي بتنزلي طبخة الملوخية من الثلاثة».

وكما يقال «يا كلمة اللّٰي قُلْتها... ويا كلمة اللّٰي خسرتها...» وبغصة
جارحة تقول: «عم تمسخر عليّ كمان... كتر خيرك».

في جميع المعارك والمراهنات التي تحصل بين الأزواج تخرج
المرأة منتصرة، وقد توجت حبيبتى انتصارها في هذه المعركة باعتراف
صريح منى بأني لا أهتمّ بالتفاصيل، ولا أعرف متى سأعود.

* * *

سكون مقيم في الغرفة... حتى لتكادُ تسمعُ صوتَ فراشةٍ إذا حلَّقت.
فالممرضات «تبخرن»، والحراس المتناوبون على مدار الساعة قد أدخلوا
الغرفة إلى ردهة مقابلة. آخر صوت سمعته، هو «سرسرة» الزرد الحديدي
الذي كان يربط معصمي إلى السرير، ربما خوفاً من فراري.

يدخل رجل بلباس ممرض في هيئة صحية، لا يلتفت إليّ. لا بل
متعمداً، يتجاهلُ وجودي، ليأخذ ناحيةً خلف الباب، ويباشِر الصلاة...
إنه مسلم ويصلي في غرفتي! هل يتعمد ذلك، أم هي مجرد صدفة؟
أتحصل في سريري، وأخذُ وضعية الصلاة وعيني عليه.

«الله أكبر، الله أكبر»، أقولها بصوت مسموع، «وأشهد أن محمداً
رسول الله»، أقولها بصوت أعلى. هو على خشوعه مُعرِّضٌ عني
ومتضرع لله بصمت، وأنا دمعتي تترقرق من عيني، وصوت الدمعة
يكسر صمت الغرفة.

التفتُ إليّ يا أصمُّ، أقول في داخلي، ألم تسمع صوت دمعتي؟
فأعلى الأصوات هو صوت الدمعة في هذه الحالة، وأنا لا أحتاج لشيء
بقدر حاجتي للكلام بعد الصلاة.

تنتهي الصلاة فأقول له: «تقبل الله»، لينطق أخيراً بجملة واحدة
«بعد ساعة سننطلق باتجاه الحدود».

لم تفاجئني هذه الجملة، وعادت بي الذكرى إلى قصة «غزة في
مرمى البصر» حين سألني الضابط بعد التحقيق قائلاً: إلى أين تعتقد
أنك ذاهب الآن؟

أنا أتحسس كثيراً من كلمة الحدود. فالحدود سدود، وكانت كلما
ذُكرت، تَسْتَفْزِنِي وتُشْعِرُنِي بِالْقَطْعِ والبُعْدِ، أما تلك التي ذكرها هذا
الرجل، فهي تعني الوصل والقرب.

وإذ يتأخى المبنى والمعنى في سياق نص معين فيؤدي التأخي
إلى فكرة محددة، فهما يتأخيان في سياق آخر، ليؤدي النص إلى معنى
مختلف.

أعلن من هذه الغرفة توبتي عن كره الحدود، لا بل أعلنُ عشقي
لها، ولهفتي لِقْيَاها. كُفْرِي بالحدود صار إيماناً بها.

هي تعني اليوم فكرة الاختراق، وتعني نصراً مبيناً بعد أن كانت
هزيمة بائنة. كانت الحدود سبباً، وهي اليوم نتيجة

انا في انفرادي حر غير طليق، وكثيرون غيري طلقاءً وليسوا أحراراً،
فرحي لا يعادله فرح، وفضولي لعناق المستقبل ليس بعده فضول.

تطول الساعة التي وعدني بها هذا الرجل، حتى لَخِلْتُهَا تجاوزت
الأيام. لو كان بإمكانني أن أسير وأعدو، لوصلت إلى الناقورة بمدة
تَقِلُّ عن فترة الانتظار.

سبحان الله كيف تتغير الأمزجة ويتناقض الشعور بين لحظة
وأخرى، فما إن أصبحتُ خارج الغرفة متجهاً إلى الفناء الخارجي،
حتى ألفتُ نفسي أسيراً ومقيداً، حزيناً لدرجة الكآبة. الناس ليسوا
ناسي، والهواء ليس هوائي.

أنا غريب في هذا المحيط... من يدير هذه الأرض؟ ومن يتحكم
بخيرها وغلتها؟ صكوك ملكية أصحابها، حبر على ورق.

سيارة الإسعاف التي أفلتني كانت أشبه بتابوب مَوْتى، لكن سبحان اللهِ فالحظوظُ تُخالف الأحوالَ في بعض الأحيان. فالتابوت كان مفتوحاً وهذه نعمة تُذكر، ويديا طليقتان من القيد وهذه نعمة تُشكر، والسيارة مضاءة من الداخل وهذه نعمة تُرى. ما هذا «العز» الذي أنا فيه؟ الفرق بين ظلام القبر ونوره هو الفرقُ بين الموت والحياة. ها أنذا حيٌّ يرزق في قبر مؤقت، في جنازة خيالية متواضعة صامته بعدد محدود من المُشيِّعين، وفوق رأسي ذلك الممرض، «الناشط» العربي حامل الجنسية الإسرائيلية الذي صلَّى في غرفتي، ورجل أمن ترك سلاحه يرتاح على ركبتيه، وسائق متقدِّم في السن، عينه على سيارة الأمم المتحدة في الأمام، وعلى سيارة عسكرية في الخلف.

لم يدرِ «المشيِّعون» أن «الميت» يعرف قصة طائر الفينيق، وأن «الجنازة» ستصير بعد ساعات عرساً، يهزج فيه الرجال وتتمايل خلاله الصبايا، ويهرع إليه الأطفال ليأكلوا ما فوق حاجتهم من الملابس والحلوى، ويملأوا جيوبهم بمشاهدَ وذكرياتٍ لقابل الأيام.

انا في بلاد جديدة ولا أسوح فيها! بل أنا «أسوح» مستلقياً على ظهري... بل أنا في بلادي ولا أراها. أريد ان أرى في فلسطين ما قرأتُ عنه، وما تناقلته الألسن، لكن الرغباتِ... دونها الصعوبات.

وما لا يدرك كله، لا يتركُ جلّه، فالحيلة وسيلتي إلى الهدف... والسؤال يؤدي إلى نصف الجواب. وأروح «استجوب» ذلك «الناشط» العربي ذي الجنسية الإسرائيلية، لأختلس منه أسماء القرى والمدن والشوارع والاتجاهات. وما سمعته من ذلك «الناشط»، كنت قد رأيته في المرة الأولى.

هناك على مدى مئات الأميال... ينداح ذلك الشارع الذي أسموه «شارع إسحاق رابين» وكان قبلاً شارع «صلاح الدين الأيوبي». يا للجغرافيا كيف تشوه التاريخ... وعلى مساحات شاسعة من الأرض، أقل قليلاً من حسرة مطرودٍ من بيته، انتزع الحق من أهله، وغرست فيه الأبنية كأوتاد لأرض كانت تميد تحت أقدام الغزاة، وتغيّرت أسماء المدن والقرى والأنهر والأحرف.

وفي الجانب الآخر من الصورة جرّافة تغيّر معالم الأرض، ورجال غرسوا أظافرهم في التراب تمسكاً بها، منهم من نزت أظافره، ومنهم من سوّته الجرّافة بالأرض، فلم يُرَ دمه الذي غار وتجمع في أعماق قلعة منيعة.

وفي يوم ربيعي مشمس قرّر «الرحالة» البحث عن هذا الدم في القلعة، فسلكوا دروباً متعرّجة، ووطئوا الوديان، وتسلّقوا الجبال، وحفروا الأنفاق، لكن حراس القلعة ومن جميع الجهات، كانوا لهم بالمرصاد. لم يكن أمامهم إلا ركوب البحر لاكتشاف هذا الدم، وبدل أن يعثروا عليه، أضافوا إليه في بحر فلسطين دماءً جديدة...

على أهمية ما حملته هذه السفن من مساعدات عينية، فإن
أعظم ما حملته وأفعَله، هو تلك العواطف الجياشة، وذلك النبل
المجموع من أقاصي الأرض، والمجبول بحرارة اللقاء بفلسطين
وأهلها.

كانت الفضائيات العاملة في غزّة تحمل إليها ومنها، أصدق
المشاعر وأنبل العواطف، فسهر الأهالي الليالي الطوال على
الشاطئ ينتظرون وصول «أسطول الحرية»، وانطلقت الزوارق
والمراكب مزدانة بأعلام فلسطين، «فافترشت» أرض البحر،
و«نصبت خيامها» فيه، تلهفاً للقاء الأحبة، على ما يقول
الشاعر الجاهلي:

وأكثر ما يكون الشوق وصلأ

إذا دنت الخيام من الخيام.

حتى صيادي الأسماك، فقد وفرّوا ما جنّته شباكهم قبل
الوصول المفترض للأسطول، لتقدمه وليمة للضيوف الأعداء.
هو «العالم الحر»، فعلاً لا قولاً، ينتصر للحق أينما وجد.

وهي العروبة الحضارية، التي ترى في احرار العالم
أخواناً...

هي رحلة التناصر والتعاقد في «حملة صليبية» مباركة
هذه المرة، لا إستعمارية ولا إستيطانية، بل هي فعلٌ توضيح بين
المشاركين الغربيين وأندادهم العرب، لفهم ملتبس كان قائماً
على معادلة: «أن كل الغرب إستعمار»، و«أن كل العرب طغيان
وتخلف وعبودية».



د. هاني سليمان

- عضو الأمانة العامة للمؤتمر القومي العربي.
- رئيس لجنة حقوق الإنسان في المنتدى القومي العربي.
- عضو مؤسس في تجمع اللجان والروابط الشعبية.
- رئيس لجنة المبادرة الوطنية لكسر الحصار عن غزّة.
- محام وأستاذ جامعي.

ISBN 978-614-01-0215-6



9 786140 102156

نيل وفرات كوم

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت
في مكتبة نيل وفرات. كوم
www.nwf.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com